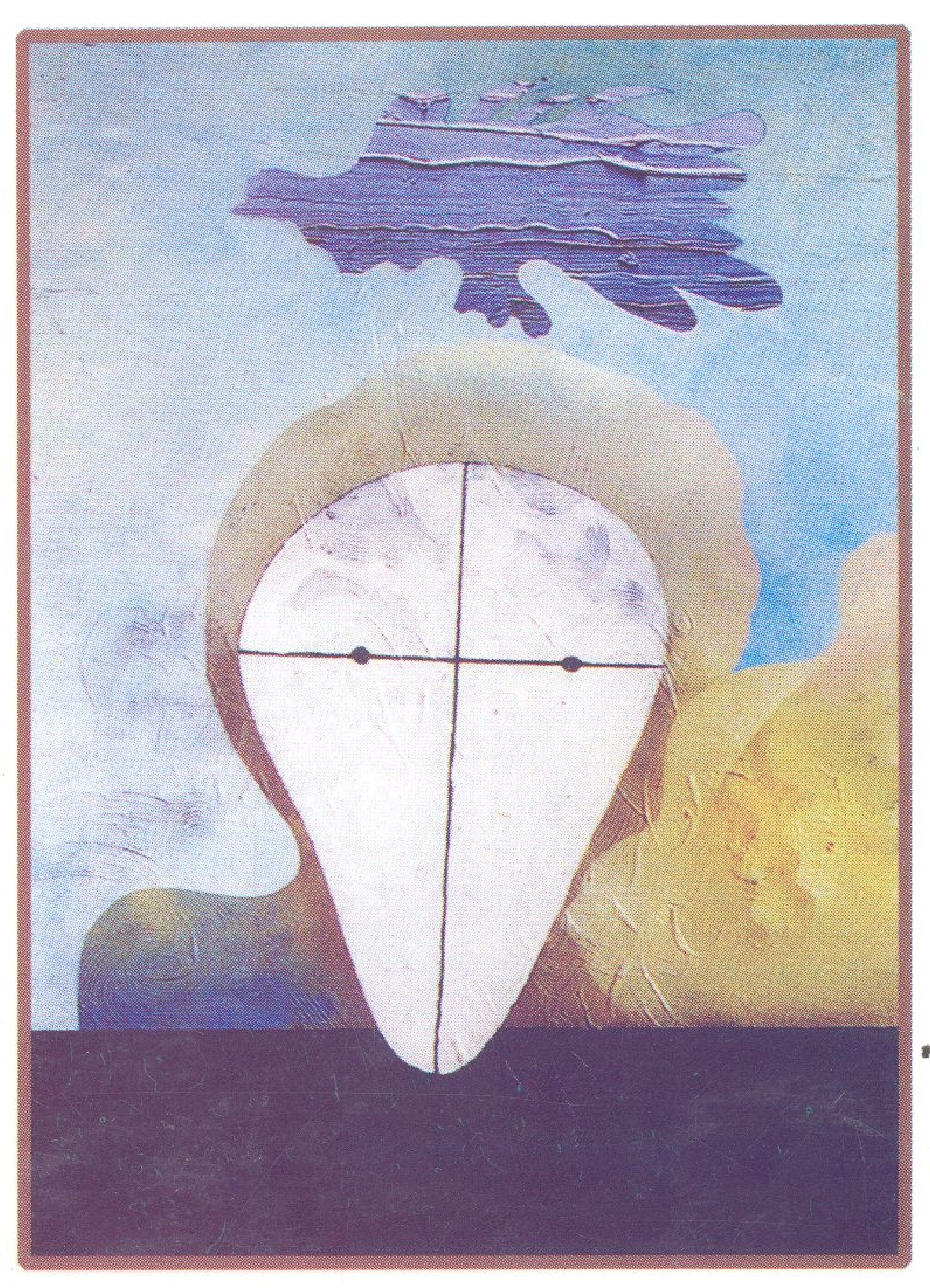
أشرف العوضى

حذاء السيد المنسى



قصص قصيرة



حذاء السيد المنسي

مجموعة قصصية

أشرف العوضي

لوحة الغلاف للفنان / حسان علي

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٩

رقم الإيداع ١١٣٢١ / ٩٩

الترقيم الدولى ، 977-291-168-X



السلسلة الأدبية

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام

على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : صابر عثمان

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

أشرف العوضى

حذاء السيد المنسى

مجموعة قصصية



إهداء

إلى شيخى وأستاذى ..

عاشق الوطن جمال الغيطانى

حبا و تقديرا ..

أشرف

تقـديـم

بلختصار .. بدأ جيـل جديـد يشـق طريقـه لاحتـلال مكانـه تحـت الشمس .. وبلختصار أيضا .. يشـكل أشـرف العوضـى حبـة في عقـد القصة القصيرة المعـاصرة . وكحالـة إبداعيـة .. يعتـبر إضافـة جديـدة لحركة الإبداع على وجه العموم ، تتميز بالموهبة الصادقـة ، والمثـابرة ، وروح التحـدي ، والإصـرار علـى مواصلـة المسـير في طريـق محفـوف بالمخاطر والأهواء والميول .. وكإنسان .. يعتبر حلقة وصل بين جيلين .. جيل يرتكز إلى تراكم خبراته ، وجيـل آخـر يسـابق الزمـن لاحتـلال مكان الصدارة .

أشرف العوضى : يقينا كلما ازدادت معرفة الإنسـان بـه ، كلمـا خلق انطباعا خاصا بأن الساحة الإبداعية العربية مليئـة بـالمواهب الجديدة زاخرة بالمبدعين .. ومع هذا فإن الاهتمام منصب بالدرجـة الأولى على كهنة الأدب ، ويدفع الثمـن جيـل جديـد يتطلـع إلى تأكيد الذات . من يمسك بزمام المبادرة ؟ من يدعم مسيرة الأصوات الشابة ؟ من يلقى الضوء على نتاجهم ؟ وأفكـارهم ؟ مـن يخلـق تواصلا حقيقيا بين رؤى وأحلام وأماني وتطلعات جيل جديد ؟ من يحفر في ذاكرة المتلقي العربي ..

إن الأصوات الواعدة لابد وأن تحتل مكانـها تحـت الشـمس ؟ سؤال برسم الإجابة . وبعد . فان معرفتي بهذا القاص الموهوب تمتد لسنوات ، ولمناوشتنا السمة الأولى في لقاءاتنـا الأسـبوعية ، نقـاش لا يخلو بأي حال من الأحوال من اندفاع الشباب والاندفاع لتـأكيد الذات وتحقيق الهوية وتجـارب السـنين أو تـردد وخـوف الكهولـة المبكرة لدى أصدقائه .

الدكتور مراد مبروك والناقد أنور جعفر والشاعر جميل ابو صبيح والشاعر حسين نجم وآخرون .. استقبلنا مولوده البكر بشعور غامر ذات مساء . فقد قطع نصف المسافة . عبر" عفاريت شجرة السرو " واستطاع بما يملك من موهبة أن يعيد صياغة القصة القصيرة بمتطلبات العصر . حقا هو أسير القرية والخضرة وطيبة الإنسان هذا الكائن الجميل ويستمد بذور اللحظة من روح الإنسان الممتزج بروح القرية بأشجارها وسمائها وزقزقة العصافير فيها ولكن لا يكون أسيرا للواقع المعاش أو المتخيل فهو يتخذ من ذلك غطاء للانطلاق نحو الحاضر . نعم . أشرف العوضي يرتكن إلى الماضي ليأخذ منه نقطة الارتكاز لينطلق إلى حاضره فالماضي لا يمثل حملا ثقيلا على كيانه ولكن إطار لطرح أفكاره ورؤاه كما خاصيته الأولى القدرة على خلق حوار سردي والشواهد كثيرة عبر قصص مجموعته الأولى وهذه المجموعة التي بين أيدينا .

وأجمل ما في أشرف العوضي المتعدد المواهب ، الإخلاص لفن القصة القصيرة هذا العالم السحري و المدهش ، هذا العالم الذي لا يمنح المبدع مجالا للانطلاق لاكتساب شهرة وقتية . ولا تثرى جيوبه ولا تشبع إلا رغباته الدفينة في تحقيق بعض الأحلام إن بمقدوره وهو يملك سلاسة الحوار أن يتهرب من مصيدة القصة القصيرة أن يخطو خطوات أخرى ويضيف إلى رصيده شكلا أدبيا وأعني المسرح من خلال الشخوص والأحداث والأفكار والأطروحات ولكنه وقد أسلم القياد لفن القصة فهو أسير في محراب هذا الفن لا أدرى حقا لماذا لا يحاول الخروج من أسر القصة القصيرة لماذا لا يخترق عوالم المسرح ؟لماذا لا يبدأ مشوار الخطوة الأولى بطرح نماذجه في أعمل مسرحية وإن كانت عبر فصل واحد ؟ ومع هذا فأنا أشد على يديه وأقول أن الارتباط بشكل أدبي واحد والالتزام الحقيقي والمخلص بشكل إبداعي محدد يخلق عطاء متميزا ويخلق مجالا أكبر للإبداع لأن التشتيت في أكثر من اتجاه قد يخلق إشكالية حقيقة لمبدع يحاول قدر المستطاع أن يطرح هموم

جيله وأن يطرح ذاته وإبداعاتــه أمــام النقـاد والمتـابعين والدارسـين. ولكن ما الـذي يمـيز هـذا القـاص عـن أبنـاء جيلـه ؟ سـؤال برسـم الإجابة. أن هذا القاص قارئ نهم يغرف جيدا من كنوز المعرفة يحاول أن يسابق الزمن وهـذا مـا يحسـب لـه. بالإضافـة إلى الصـدق الفـني واحترام نتاج الأجيال المتعاقبة فهو كثيرا ما يستشهد من خلال حواراته أو مقالاته الصحفية بجهد وعطاء من سبقوه. من هنا فإن هـذا التأثـير والتأثر قد منحه فكرة التروي وخلق لديه انطباعا بمدى ارتباط حلقات الأدب عبر الأجيال فهو لا ينكر جهد جيل أعطى الكثير ومهد الطريق لهذا الجيل وقد كان الجيل السابق أكثر حظوة لأنه خـرج مـن معطـف مزج ثقافات عدة وأسبغ على ذلك الجيل رؤيته النقدية الصادقة. مـن هنا كان هذا الجيل الذي ينتمي إليه القاص الشاب يحفـر في الصخـر، قد يسترشد بإبداعات الموهوبين أمثال يوسف إدريـس ويحيـى الطـاهر عبد الله أو حتى أستاذه الذي يعشقه ويعشق كـل حـرف يكتبـه جمـال الغيطاني وأسماء أخرى علامات مضيئة في سماء القصة القصيرة ولكـن صدمة الجيل الجديد في غياب النقد فإذا كـان الجيـل السـابق قـد أكـد هوية القصة القصيرة عربيا فان هذا الجيل مـن خـلال الجـهد الذاتـي يرسـم خطاه لعل وعسى أن يصل إلى بر الأمان.

أشرف العوضي بخلاف ما ذكرت يتميز بميزة أخرى وأعني الجرأة في طـرح الـذات والتضحيـة .. كيـف ؟ ففـي الوقـت الـذي يحجـم فيـه الكثيرون عن خوض المغامرة شمر هذا الفتى عن ساعد الجد ويضحـي بكل شيء يتكبد عناء الكتابة ومشاق الطباعة والنشـر والتوزيـع وفـي الوقت الذي يتردد فيه الآخرون أو يخشون مغبة خوض التجربة يندفـع هذه الفتى لخوض غمار التجربة. مرة تلو الأخرى. ولكن ماذا يحمـل الغد لأمثاله.؟ وهل يحمل الآتي البشارة ؟ أعتقد أن الغموض يغلـف الطرح فنحن نعيش في زمن رمادي وعلاقـة الـرأس وأعنـى الإبـداع بـالواقع المعـاش. علاقـة هشـة نحـن نعيـش في عصـر " الأقـدام " والعلاقة متشابكة بين هذا وذاك ومع هذا فان هذا القاص وأبناء جيله

يحملون شمعة تبدد ظلمات الواقع الأدبي ويصر هذا الفتى على تغذية الذاكرة بما يطرحه من شخوص وأحداث ، من هنـا فلـم يكـن تمثيلـه واستحضاره لعنوان مجموعته الجديدة ضربا من العبث " حذاء السـيد المنسـي " إنـها صرخـة احتجـاج .. وإشـارة تنبيـه لاكتشـاف العلاقـة المتوازية بين الفكر والإبـداع مـن جهـة والـ ... من جهـة أخـرى . أشرف العوضى حالة مخاض لواقع إبداعي يطل على استحياء ولكـن بادراك حقيقي وتصميم وقوة وإرادة وهو بعد هذا وذاك علاقة متوازية بين انبثاق النور والمقولة الأزلية " مصـر ولّادَة " ففـي زخـم الفـراغ والشللية ونقاد البطون الخاويـة وكتـاب الأعمـدة المـأجورة والمقـالات المدفوعة الثمن يتحدى هذا الفتى الواقع ولا يملك مـن أداة التحـدي سوى العزيمة والإصرار . التحـدي علـى تقديـم ذاتـه ويكفيـه فخـرا وشرفا شرف المحاولـة لأن في هـذا إضافـة لحركـة الإبـداع . إن أمثـال اشرف العوضى نماذج حقيقية لإرادة جيل جديد .. جيل يؤمن بذاتـه في ظل واقع هلامـي الملامـح . ومـع هـذا فـهؤلاء هـم بصيـص الأمـل والبشارة بالغد الآتي .

وأخيرا إذا كنت قد سـجلت في ذاكرتـنـا حضـوراً متمـيزاً وأكـدت موهبتك الصادقة من خلال مجموعتك الأولى فإننا على ثقة مـن انـك قادر على أن تترك في ذاكرتنا مرات ومرات انطباعاً حقيقياً ، وتؤصل في الذاكرة الجمعية ، أننا أمام موهبة قصصية واعدة تملك الكثـير مـن الوعي والنضج الفني . أتمنى حقا ألا تلتفت إلى الـوراء وأن تواصـل المسير، تجتاح السدود والموانع ، ويكفيك شرفاً أنـك أسـلمت القيـادة للأدب في عصر لا يطعم فيه الأدب خبزا . ولأن هذا قدرك فلا مـهرب لك أيها الصديق الجميل سوى الانطلاق وتحظيم القيود .. كـي تتبـوأ حقا مكانك تحت الشمس .. وأنت أهل لها .. مع محبتي .

حسن رشيد


أبو السباع

لم يكن كل من يراه للمرة الأولى في مكانـه في المقـهى يعرفـه، ولكنه سرعان مـا يصبـح أحـد مسـتمعيه الدائمـين ، ولا يعتقد الكثيرون أنه هو نفسه أبو السباع الذي سمعوا عنه، كان طويل القامة حتى تظن أنه واقف في حـين أنـه جـالس ومسـترخ ، قمحـي البشرة ممصوص كغابة الجوزة التي لا تفـارق شـفتيه المزمومتـين دائـما حتى وان لم تكو نا تمسكان بها . لا اذكر أنـي رأيتـه مـرة إلا والدخـان يخرج من طاقتي أنفه الواسـعتين غزيـرا كثيفـا ، كـان دائـم التحـدث لا يكل ولا يتعب .

لا علم لي بما كان يقوله ولكنه كان بالتأكيد يستمتع بذلـك ، فعلـى مدى أكثر من عشرين عاما وهو كما هو لم يتبدل ، يجلس على مقـهى "سعدية " وعلى نفس الكرسي تقريبا وحوله مجموعـة مـن العربجيـة الذين أوقفوا خيولهم تحت عريشة " حنفي المقص " لكي تنل قسطا من الراحة حتى تتحمل مشقة عمل ما بعد الظهيرة .

يذهب العربجية إلى أعمالهم ويعود موظفي الحكومة من أعمـالهم . . مدرسون و كتبة و عمل مصنع الصابون ويكونون حلقة أخـرى وهـو كما هو يتحدث .. وهم كما هم دائما منصتون .

كان ذلك هو المشهد الذي أراه يوميا من شرفة منزلنا غـير البعيـد عن محطة السكة الحديد وعن مقهى " سعدية " تلك المـرأة الجميلـة الدائبة الحركة في مقهاها الصغير الذي كنت أرى فيه عالما لابد لي مـن سبر أغواره والدخول فيه ولو مره واحـدة غير أن بطـش خـالي الـذي يعيش معنا كان يشكل هاجسا مفزعـا لي . فـهو يقـول دائـما أن رواد ذلك المقهى ما هم إلا مجموعة " عواطلية " .

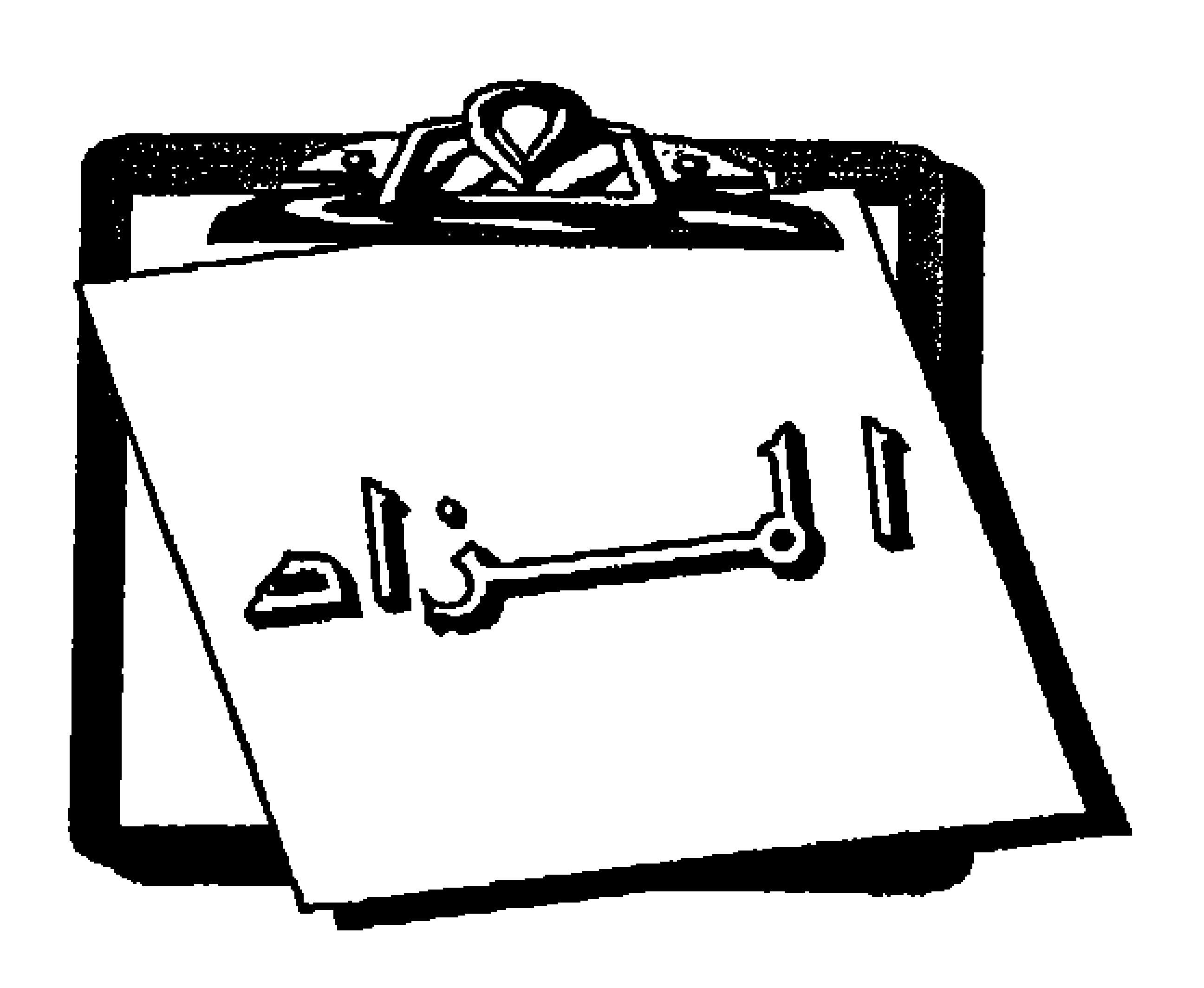
كثيرا ما تمنيت أن اكـبر واجلـس هنـاك لكـي أكـون أحـد الذيـن ينصتون إليه باهتمام لا يعرف الملل ، وشغف لا يعرف الشبع ، فمـن المؤكد أن ما يقوله يستحق الاهتمام ، وأن ما يحكيه منذ سنوات ربـت على عشرين عاما أو تزيد هو بالضرورة مثير ومشـوق ، كمـا يسـتحق

الاهتمام أيضا ذلك المظهر غير العادي الذي يبدو فيه دائما ،فـهو منـذ رأيته للمرة الأولى وهو يرتدى ذلك الجلبـاب الصـوف وعليـه ذلـك البالطو الرمادي يرتديهما صيفا وشـتاء والأعجـب مـن ذلـك حذائـه الأبيض في اسود الذي لم أكن حينها قد رأيت مثله مـن قبـل . كـان أبو السباع نظيفا دائما فلم يكن يسمح للحيته أن تنبـت ولا لشـاربه أن يزيد عما هو عليه ولو مل واحد . أما اللحظات النادرة التي لم يكن يدخن فيها ولا يتحدث فقد كانت عندما كان يأتي إليه البرعى الحلاق في نفس الميعاد صباح كل يوم .

كان المقهى بالنسبة لـه أشبه بـالعمل الحكومـي ، يـأتي في ميعـاد ويذهب في ميعاد ، لا أحد يعلم من أين يأتي ، ولا إلى أين يذهـب ، فقط كان كما نراه لغزا محـيرا علـى الأقـل بالنسـبة لي . وكثـيرا مـا سألت نفسي هل هو متزوج وأين يعمل ومن أين ينفق على نفسـه ؟ غير أن شيئا أخر كـاد يفقدنـي عقلـي فكـل مـن في المقـهى يكـبرون ويشيخون ، إلا هو ، فالست سعدية لم تعد تقـوى علـى الحركـة منـذ أصيبت بالروماتيزم ، وحتى الولد سنقر صبـى المقـهى كـبر واصبـح رجلا ، بل انه تزوج وانجب طفلـة جميلـة . ومـات مـن مـات وتبـدل موظفو السكة الحديد الواحد تلو الآخر . وهو كما هو لم يتغير . حتى ملابسه ظلت كمـا هـي لم تبـل أو يتغـير لونـها علـى أقـل تقديـر ، والعجيب أن حذاءه الأبيض في اسود لم يتغير لونه و لم يتسخ ولم تنل منه الأيام كما تفعل بأحذيتي التي أغيرها كل علة اشهر . حتى شرفتنا التي كنت أراه منها تغيرت هي الأخـرى فلقـد هدمنـا المـنزل القديـم وبنينا أخر اكبر وانظف . حتى أنا لم اعد اجلس لأراقبه إلا نادرا فبعـد التحاقي بالجامعة لم اعد شغوفا به مثلما كان شغفي به سـابقا و بعـد أن أنهيت دراستي والتحقت بإحدى دور الترجمة . لم يعد عندي الوقت كي أراه . ومن العجائب التي لم استوعبها في أول الأمر أن أحدا مـن الناس لم يكن قد رآه في الشارع المؤدى إلى المقهى أبدا . فقط كنا نـراه

جالسا يدخن الشيشة ويتحدث بإسهاب كعادته وحوله نفر غير قليل .
حتى ذلك اليوم الذي فاجأني فيه ابني الصغير ونحن نجلس سويا في شرفتنا المطلة على المقهى : " مين الراجل ده يا بابا ؟ "

لم أقدر ساعتها على الإجابة فقط ابتسمت .


المزاد

الريح النحات

ينحتني في الصوان

جبل الصوان الأزرق

يغلق بالأزميل الصخرة

فيرى رأسي تقطر دما

يتساقط من عينيه خيط دموع

هل يبكيني

أم يبكي لي

لا أدري

لكن الريح النحات

يغلق تلك الصخرة

ويشد الأزميل

ينحتني في الصوان (*)

(*) من قصيدة الريح النحات للصديق الشاعر الأردني جميل أبو صبيح .

كان الخبر المنشور في الجريدة صغيرا لا يكاد يرى ولكنه نزل على كالصاعقة . لم أدر ماذا حدث لي . كل الذي تذكرته فيما بعد أنني انتفضت أصيح : "غير معقول .. ما هذا الجحود " .

تركت مقر الجريدة التي اعمل بها منذ سنوات متجها حيث العنوان الذي أشير إليه في ذلك الخبر المشؤوم . كان المكان مكتظا بوجوه لم أتعود على رؤيتها مجتمعه معا في مكان واحد ، تجار موظفون و نساء يبدو عليهن الثراء ، أطفال يمرحون في جنبات المكان أغلب الظن أنهم قد أتوا مع أمهاتهم اللواتي انهمكن في معاينة ما قد جاءوا من أجله . أفاق الجميع على صوت مطرقة منادي المزاد كان رجلا في أواسط العقد الخامس مائلا إلى القصر حاد النظرات يشبه إلى حد كبير المرابين الذين كنا نراهم في أفلام زمان . كانت ضرباته قوية وعنيفة أسكتت تلك الأحاديث الجانبية وذلك الطنين الذي لا تعرف من أين ينبعث . قال الرجل بآلية اكتسبها من كثرة قيامه بتلك العملية مئات المرات من قبل :

- إن مزاد اليوم مزاد غير عادى إننا هنا لسنا لبيع مجموعة من التحف القديمة لشخص مجهول أو إنسان عادى بل إن المزاد لبيع أغراض ومقتنيات ونياشين ومخطوطات ومكتبة المفكر الكبير والأديب الذائع الصيت الذي رحل عن دنيانا منذ أسابيع قليلة وكما ترون حضر عمليه البيع كثير من وكالات الأنباء ومحطات التلفزة ونأمل أن تكون المزايدة جيدة حتى يستفيد أبناء الراحل الغالي .

ثم أشار بيده إلى شابين وسيدة جلسوا في مقدمة الحضور ، كانوا مبتسمين لعدسات المصورين .. لا اعرف لماذا ، ولكن علا التجهم وجه أحدهم عندما رآني ثم همس إلى أخته التي رمقتني هي الأخرى بنظرة حادة فيها كثير من الضجر والضيق .

كنت أود الذهاب إليهم والإمساك بتلابيبهم صارخا فيهم لماذا تبيعون ما تبقى منه ؟ هل هذه وصيته التي أوصاكم بها ؟ ألم يقل لكم

بحضوري في أخر أيامه أن كل ما اتركه هـو هدية لكليـة الآداب حتـى يتسنى للباحثين وطلبة العلم والمعرفة أن ينهلوا من علمه الذي أفنـى فيه اكثر من سبعين عاما من حياته . ورغم أن الرجـل مـات وهـو في بدايات العقد التاسع إلا انه ظل حاضر الذهن متقـد التفكـير ثـاقب البصيرة رغم فقده بصره وسمعه في أيامه الأخيرة .

كان الأستاذ الذي كنـا نحـج إليـه مسـاء كـل خميـس ، معجـزة مـن معجزات الله على الأرض ، يتحدث دائما بهدوء ورجاحة عقل يستمع للصغير منا قبل الكبير ويتسع صـدره لكـل الاطروحـات الـتي تقـال داخل المجلس لا يبخل أبدا بإجابة ولم يسخر مرة من ضحالة فكرسائل أو تطاول مدسوس بيننا ورغم ما أضافه إلى رصيد المكتبة العربية من كتب في اكثر من مجال إلا انه كـان شـديد التواضـع بـل كـان يربكـه الخجل منا وهو يحدثنا عن كتاب جديد يود طباعته أو فكرة جديدة يود أن نناقشها سويا وكأنه كاتب ناشئ وليس ذلك العملاق الذي يشـار إليه بالبنان .

كان الرجل دائما محاصرا بعدسات المصورين ومراسـلي الصحـف ومقدمي البرامج الكل يسعى إليه ولكنه هو الذي كان يسعى إلينا بل انه لا يبدأ الجلسة الأسبوعية إلا إذا انتظم عقدنا بل وبعد أن يطمئن بنفسه على من تغيب منا لسبب أو آخر . ومع أني لم أعـاصره وقـت شدته ووقت أن كان مغمورا فقيرا إلا أن الأستاذ مرعى محمود أكبرنـا سنا وأحد من عاصروه في بداياته حكى لنا كيـف كـان الرجـل رغـم فقره وقلة ذات يده كريما إلى أقصى حدود الكرم وكيف ظل وفيـا إلى أصدقائه حتى آخر لحظات حياته . ورغم ما بيني وبـين الأستاذ مـن مودة وحب لم استطع الحديث معه حول كيفية ترك أولاده له يعيش هكذا وحله مع عم منصور خادمه العجوز الذي أصبح يحتاج إلى مـن يخدمه. ومع ذلك الصمت منـه كـان الألم يعتصـره وتلمـع الدمـوع في عينيه الذابلتين عندما يذكره أحد الحضور بأولاده الثلاثة الذيـن أفنـى عمره عليهم ولا يجدهـم حوله في أيامه الأخيرة .

أفقت على طرقة أخرى من منادي المزاد قال :

- سنفتتح المزاد الآن وعلى الذين يريدون الزيادة أن تكــون محــددة بعشرة جنيهات في المرة الواحدة ..

ثم أشار بيده إلى طاولة الأستاذ كــانت مـن خشـب الــورد المزيـن بكثير من النقوش الاسلامية المطعمة بالفسيفساء. لم استطع أن أتخيل كيف أن أحدا غير الأستاذ سيجلس عليها ، هذا التحفة من الخشب لو كانت تستطيع التعبير لصرخت حزنا على رفيقها الذي احتضنها، والتي شهدت ميلاد معظم أعماله الإبداعية .

توالت المزايدة لبيع كل ما تركه الراحل العزيز قطعة وراء قطعة ، فهذا هو الصالون المذهب الذي شهد ندواتنــا الاســبوعيه لأكـثر مـن عشرين عاما ، وهذه المجموعة من طفايات السجائر التي طالما امتــلأت وأفرغت ونحن في قمة الانفعال والنقاش وهذه مجموعــة أقـلام الحـبر الخاصة بالأستاذ والــذي كـان حريصـا عليـها إلى درجـه كبـيرة . آه مـا أصعب تلك اللحظة التي أمر بها ، أحس وكأنهم نبشوا قـبر الرجـل وأخرجوه ، وبدأو في تمزيقه وبيعه جزءا جزءا . كنت أتمنى أن اشــترى كل شئ ولكن بعد أن تحسست جيوبي الخاوية دائما وتذكرت أنــى لا املك حسابا في أحد البنوك حتى هذه اللحظة ، علــى الرغـم مـن أن الأستاذ ألحقنى بالعمل في جريدته التي كان رئيسا لتحريرها منذ اكــثر من خمسة عشر عاما ولكن متى كانت الكتابة تجلب للكاتب خبزا ، ومتى كان الأديب صاحب ثروة ؟

كنت أخشى أن يقترب المنادى من المكتبة الضخمة التي طالما نـهلنا منها ، فكل كتاب فيها اخذ من وقتنا ، كل صفحة في كل كتــاب كنـا قد تناقشنا حولها . نعم إني أرى كتاب قصة الحضارة كما هو أتذكر أن أحد أغلفته ممزق قليلا لكــن لا بـأس ، وهــذه هــي روايـة الحـرب والسلم ، وهذه مسرحية البخيل لموليـير الـتي كـان يحبـها الأســتاذ إلى درجة كبيرة .

ليتني أستطيع أن أوقفهم ولكن أين المبلغ الذي أستطيع أن أشتري به مكتبة تناهز الخمسة عشر ألف كتاب من أمـهات الكتـب ، كثـير منها أهداه أصحابها إلى الأستاذ . كانت مساحات الابتسام تتسع اكـثر على وجوه أبنائه كلما زادت حصيلة المزاد ، بـل أن أكـبرهم امسـك بآلة حاسبة يسجل فيها كل رقم تنتهي به كل عمليه بيع.

فرغ المنادى من أثاث المكتب ثـم بـاع غرفـة النـوم الـتي شـهدت حواراتنا عندما دخل الأستاذ في مرضه الأخير ولم يعد يستطيع الجلوس معنا إلا وهو راقد في فراشه ، ثم باع طاولة الطعام الكبيرة الـتي طالما تناولنا عليها الفول والفلافل التي كان يفضلها الأستاذ رغـم نصيحـة طبيبه بعدم تناولها ، ثم بيع المطبخ الذي خرجت منه ألوف من أقـداح الشاي والقهوة لخيرة مثقفينا مساء كل خميـس . لم يتبـق شـئ .. بـاعوا السجاجيد التي كثيرا ما جلسنا عليها عندما كان يزدحم الصالون مـن كثرة مرتاديه . باعوا الثريات والتحـف واللوحـات الـتي أهديـت إلى الرجل من كبار الفنانين والنحاتين .

أخيرا اتجه الرجل إلى ما كنت أخشـى طيلـة الوقـت بيعـه ، فبـاع المكتبة الضخمة إلى أحد تجار الرباوبيكيا الذي كان سـعيدا إلى درجـة كبيرة بهذه الصفقة المربحـة فلقـد أخذهـا المكتبـة دفعـة واحـدة بمبلـغ تافه زهيد .

أحسست أني مشلول عاجز ، لأول مرة اعرف طعـم الفقـر كـم أشعر الآن بمدى سطوة المال الجارفة كأنها السيل الذي يجرف كل شـئ ويأخذه في طريقه. أمن المعقول أن تباع كتب الأستاذ الذي أفنى عمـره في جمعها هكذا لبائع روبابيكيا لا يعرف قيمتها ؟

تلفت المنادى حوله كان المـزاد علـى وشـك الانتـهاء ثـم امسـك بالقطعة الأخيرة أو ما تبقى من الأسـتاذ ، كـان بورتريـه بحجـم كبـير يصور الأستاذ بملابس المنزل وعلى وجهه مسحة حزن وكأنه كان يعلم

ذاك الذي سيحدث بعد موته ، أتذكر هذه الصورة جيدا فلقد رسمها أحد كبار الفنانين للأستاذ ، قال المنادى :

- نبدأ بعشرين جنيها ..

ما هذا الذي يحدث أنا لا اصدق أن هذه اللوحة التي لا تقدر بثمن والتي رسمت في اكثر من خمسة عشرة جلسة طويلة كنا نستمع فيها إلى الأستاذ وهو يتحدث ، كان حديثا شيقا ، أشبه بمحاضرات متعمقة ومتبحرة في أصول الفن ونشأته وجذوره والمدارس المختلفة وأشهر رسامي العالم ، كان يعتز دائما بالنقوش الفرعونية التي تتحدى الزمن ، لم نكن نتمنى أن ينتهي الفنان من تلك اللوحة حتى نظل ننهل من علم وفلسفة ونظرة هذا الرجل للحياة .

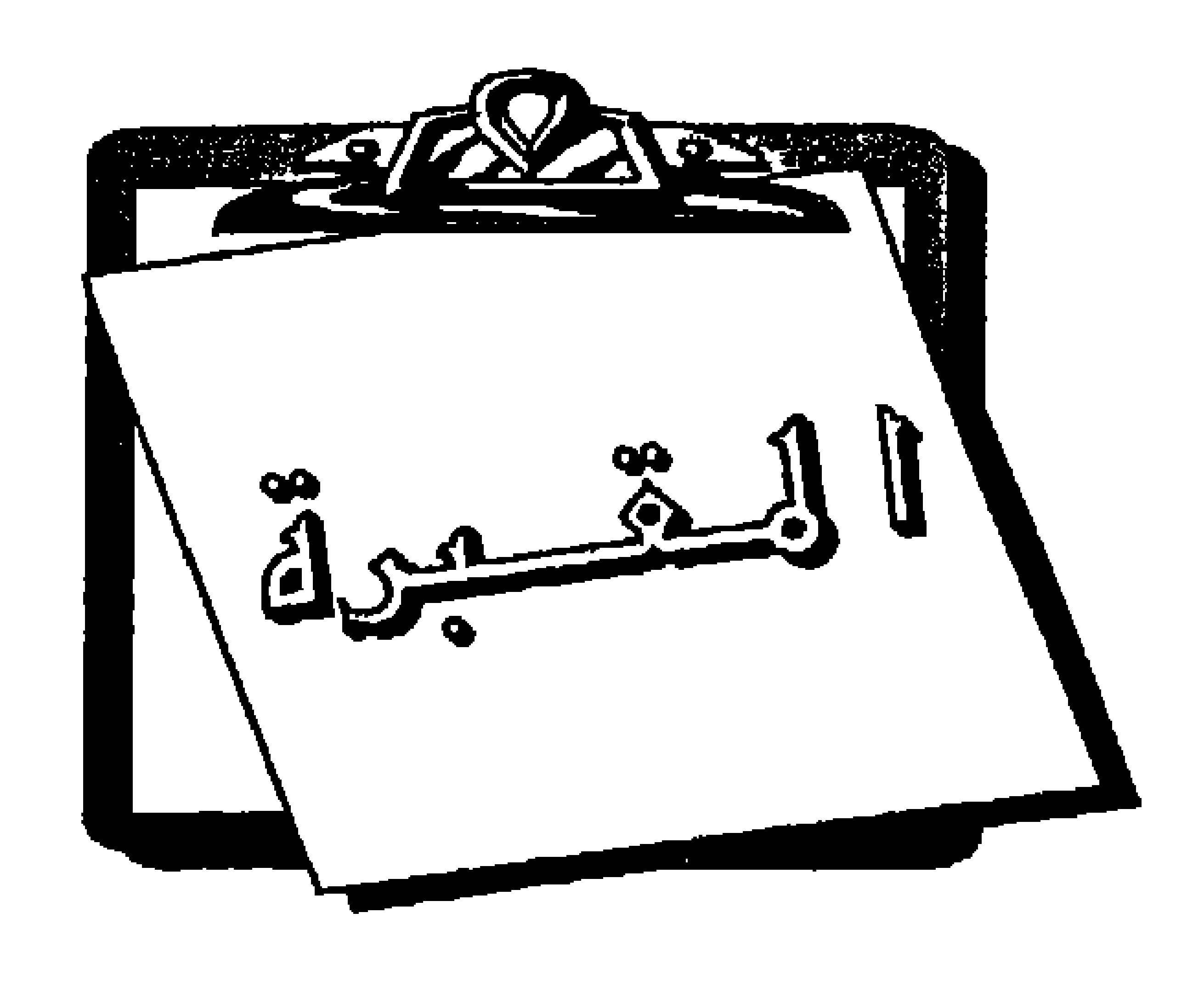
اذكر أني يوم أن توفي الأستاذ لم أبك ، بل كنت هادئا ومطمئنا لأني أعلم أن الرجل قد أدى رسالته على أكمل وجه ، وان ما تركه من عصارة فكره وإبداعه سيظل حيا وان هذه الثروة من كتبه التي تنخر بها المكتبة العربية وكثير من مكتبات أوربا التي ترجمت أعمال الرجل هي امتداد لعمره ، ثم هنالك أبناؤه الثلاثة الذين سيحيون ذكرى أبيهم وسينشرون ما لم ينشر من كتاباته ، وانهم لاشك سيقيمون له الندوات ويترجمون الجزء الذي لم يترجم من تراثه . غير أني هذه اللحظة فقط أدركت أن الرجل قد مات ومات الآن فقط !

ظل المنادى يصيح على اللوحة التي كنت أتصور أن تباع بسرعة فائقة لما لها من قيمة تحسست جيوبي لم اكن املك في تلك اللحظة غير ستون جنيها فقط . خرج صوتي مشروخا ممزوجا بالألم والحزن ستين جنيها . مرت لحظات وكأنها دهر ولم يزد أحد على . صاح المنادى :

- « ألا دونه ألا أونه ألا تريه » مبروك يا أستاذ الصورة من نصيبك ، احتضنت الأستاذ اقصد احتضنت اللوحة و خرجت من

ذلك المكان الكريه . كان العمال ما يزالون ينقلون الأثاث والكتب إلى أحشاء السيارات المعدة لذلك . كانت سيارات كثيرة جاثمة على صدر الشارع تمنع رؤية ما خلفها

لكن استوقفني مشهد لم أنساه حتى الآن ، كان أحد العمال المكلفين بنقل البضاعة قد جلس على كومة من الكتب وبين يديه أحدها وقد انهمك في القراءة .


المقبرة

لم أكن ساعتها أستطيع البوح بما يجول في خاطري . ليـال كثيرة قضيتها وهذا الأمر يطغى على كـل أمـوري الحياتيـة . فلقـد هجرت اللعب مع أقراني ، ولم أعد احفل بما كان يسعدني سواء تلك الحلوى التي يجلبها لي أبى كلما عاد من عمله ، أو كيس التوت الـذي كان يخصني به خالي من شجرته التي يزرعها علـى رأس حقلـه ، حتـى فاطمة صديقتي الأثيرة وابنة خالتي لم اعد اكترث بزيارتها لنـا كسابق عهدي بها عندما حضرت ومع ألعابها الـتي كنـت أقضـي يومـي كلـه معها نلعب لعبة العريس والعروسة ولكنها ما لبثت أن انسـحبت في هدوء وهي تمسح دموعها ولا تعلم ماذا ألم بي هذه الأيام .. أنـا الـذي كنت انتظر زيارتها لنا على أحر من الجمر وأنا الـذي لم اكـن اخجـل حين تقول أمي بافتخار وسعادة :

" والله لايقين على بعض . لازم نجوزهم لما يكبروا "

لم تدر أمي ماذا ألم بي أول الأمر ، غير أن الكآبـة والحـزن اللذيـن كانا يكسوان ملامحي كشفا عن بركان الأسى الذي يموج بداخلي ، أنا الطفل الذي لم يتجاوز العاشرة ومع ذلك أبدو كشيخ في الستين ضاع ماله وولده . غير أنى لم أستطع إخفاء هذا السر الكبير عن جدي ذلك العجوز الطاعن في السـن والـذي أشـاركه فراشـه ولا يسـمح لأحـد غيري بدخول حجرته والعبـث بحاجياتـه القديمـة ، فأنـا دون أخوتـي أستطيع ارتداء طربوشه القديم الذي يحرص على نظافته من حـين إلى أخر رغم أنه لم يرتديه منذ أمد بعيد . حتى منشته كثيرا ما أخرجتـها من مكمنها في الدولاب الخشبي العتيق ويرانى ممسكا بها ولا يصـدر عنه أي اعتراض أو شكوى ، فقط كان يطبع قبلة حانيـة علـى جبيـني وكان يستغرق في ضحكات مسعولة عندما أقول له إن لحيتك بها شوك ولأني كنت أصغر أحفاده من ولده الوحيد فقد كان جـدي كثيرا مـا يأخذني معـه في تنقلاتـه المحـدودة عندمـا نذهـب سـويا لزيـارة الحـاج السنوسى صديق جدي الوحيد الباقي على قيد الحيـاة ، والـذي كـان

يخصني بكثير من الكرامله والحلوى ثم ما يلبثا أن يخوضا في حديث الذكريات الذي اجتراه كثيرا ولم يملا منه أبدا ، وكنت أحظى من جدي بحكايات ما قبل النوم إذ كان بارعا فيها إلى درجة كبيرة ، غير انه تلك الليلة فاجأني بسؤاله:

" مالك يا وله شكلك مش عاجبنى كله من كآم يوم .. فيه حد من العيل ضربك "

ساعتها فقط انهرت واعترفت له بما يجول في نفسي من خواطر حزينة وسؤال لا اعرف له اجابة قلت له متسائلا :

- لماذا نحن يا جدي فقط دون غيرنا من أهل البلد ليس لنا مقبرة نزورها كل خميس ونزرع حولها الصبار والريحان ونحضر الشيخ مسعود ليقرأ عليها القرآن بعد أن نعطيه البرتقال والتمر.. لماذا يا جدي ؟ أنا لا أستطيع أن أواجه أصدقائي الذين يقولون لي أنكم لا تموتون مثل بقية الناس لأنكم من أولاد الجن . كنت أحاول أن أقول لهم أننا مثلهم تماما وإذا بهم يقولون إذن لماذا لا يوجد لكم مقابر مثلنا ؟ حتى عندما يتجمع الصبية بعد العصر ويقررون الذهاب إلى المقابر لا أستطيع الذهاب معهم مع أنى احب سماع الشيخ مسعود وهو يقرأ القرآن لأن كل واحد منهم يعرف أين يتجه .. هذا إلى قبر أبيه ، وذاك إلى قبر جده أو عمه ، أما أنا فأقف خجولا مرتبكا لا أدرى ماذا افعل . وفى المرة التي ذهبت معهم ووقفت أمام قبر عم محمود المدبولى جارنا وهممت بقراءة الفاتحة نهرني ابنه محسن وقال هذا قبر أبى وأنا وحدي الذي يفعل ذلك فاتزويت باكيا والأولاد يشيعوني بضحكاتهم الممتزجة بسخرية كبيرة .

أتذكر يومها أن الجد صمت لحظات ثم أخذني في أحضانه وقال

يا ولدى نحن لسنا من هذه البلد لهذا فليست لنا قبور هنا فمنذ قدمت أنا وجدتك منذ اكثر من خمسين عاما لم يمت منا أحد حتى بعد

أن أنجبنا أبيك وتزوج منهم ما يزال أهـل القرية يسـمونتنا الغربـاء ، ولكن أعلم أن لنا قبورا أكبر وأفخم من قبورهم تلـك وان لنـا أهـل هناك لا تعد ولا تحصى .

لم اقتنع بما قاله الجد ولم يقتنـع أصحـابي عندمـا نقلـت لهـم ذلـك الحديث فلقد ولدت هنا ولا أعرف لنـا قريـة أخرى ، صحيح انـهم يقولون لي دائما أن جدي قد أتى إلى هنا مع مشاريع توسعة النهر وان أهله وعزوته ما يزالون هناك وهم كثر ، غـير أنـي لم أر أحـدا منـهم يزورنا ، ولم أكن أعرفهم إلا من حكايات جدي الذي تدمع عيناه عندما يتذكرهم . كانوا طيفا عابرا سرعان ما يزول أما أنـا فمـا أريـده ليـس بالكثير ، أريد مقبرة أذهـب إليـها وأرى اسـم أسـرتنا منقوشـا علـى رخامها ولا أريد أن ينعتـني أصدقـائي دائمـا بـالغريب أو ابـن الجـن والعفاريت حتى ذلك اليوم الذي عرفت فيه كم يكلف أن يكـون لنـا قبر نزوره ونزرع حوله الصبار والريحان ويقـر أعليـه الشيخ مسـعود القرآن بعد أن يأخذ البرتقال والتمر . فلقد مات جدي .


ما بعد
الخروج

كان تعنتُه غريبا وإصراره لا مبرر له اللهم إلا استخدام سلطة محدودة وعاجزة .لم يقبل الاستجداء ولم ينفع معه اللين ومعسول القول فقط قالها ولم يتزحزح عنها قيد أنمله :

- لابد أن يأتي بنفسه يا سيد وأرجوك متعطلنيش ورانا ناس غيرك .

ولم يكن هناك بد سوى الخضوع وتنفيذ ما قاله ذلك الرجل .

كان جدي محبا للحياة إلى أقصى حد فقد كان حريصا على الاستيقاظ مبكرا وإيقاظ كل من في المنزل ، كان له طقسه الخاص الذي اعرفه عنه منذ أبصرت عيناي الدنيا ، فبعد تناوله لإفطاره يرتدي ملابس الخروج رغم أنه يعرف جيدا أنه ليس ثمة مكان يذهب إليه سوى تلك المصطبة الكائنة أمام منزلنا منذ سنوات بعيدة والذي كان حريصا على ترميمها كلما نال منها الزمن . كان يفرح بجلسته تلك وكان يسعد عندما يبدأه الناس في إلقاء السلام عليه وتحيته ، كان يرد عليهم بصوت مملوء بالحب و معجون بحكمة السبعين عاما التي يحملها على كاهله ، وبالرغم من أن الرجل كان لا يبصرهم منذ اطفئت تلك المياه اللعينة التي يحملها في مقلتيه نور الحياة ، إلا انه كان خبيرا في تمييز الأصوات ، بل انه يستطيع أن يعرف حالتك المزاجية بمجرد سماعه للكلمة الأولى منك .

كان جدي يصغي إليَّ باهتمام لم أعهده فيه من قبل ، وتهلل وجهه وانشرح فؤاده لدرجة أنستني ما لقيته في يومي من أجله بسبب تلك النقود القليلة التي تمنحها له الدولة كمعاش للطاعنين في السن ومع أني أعدت عليه ما قاله الموظف ازدادت سعادته عندما علم انه سيخرج مع أول أيام الشهر لنذهب سويا إلى المدينة التي لا تبعد عن قريتنا سوى بضعة دقائق بالسيارة . وعلى الرغم من حنقي على قرار موظف التأمينات والمعاشات الظالم الذي لم يقتنع أبدا عندما أخبرته أن جدي رجل كفيف ، وكبير في السن ، ولا يقوى على الإتيان بنفسه

إلا أني كنت سعيدا لسعادة جدي التي لم أكن في حينها أعرف مصدرها المهم أنه سعيد وهذا يكفيني.

كان يوم الخروج الذي توافق مع ثاني أيام الشهر يوم سبت، حيث كان أول أيام ذلك الشهر يوم جمعة مما ضايق جدي كثيرا وقالها وقد قتل على وجهه ابتسامة قبل أن تولد:

- لسه هستنى يوم تانى.

استيقظ مبكرا كعادته، وحملني حملا على الاستيقاظ، ارتدى جلبابه الصوف الذي لا يرتديه إلا في المناسبات الجليلة، أو الأحداث الهامة، عدل من وضع عباءته الصوف على كتفيه مع أن الجو كان غير بارد حيث لم يحل الشتاء بعد على الرغم من تجاوزنا لشهر ديسمبر منذ أيام.

انفرجت أساريره عندما سمع نفير السيارة التي كنت قد استأجرتها خصيصا لهذا المشوار خوفا على الرجل العجوز من زحام المواصلات العادية.

كان جمعة سائق السيارة سعيدا بجدي الذي لم يعره انتباها، إذ انه منذ أن وضع قدميه في السيارة أخذ فى مراقبة الطريق بإمعان شديد وكأنه عاد إليه بصره، كانت تعبيرات وجهه توحي بأنه في دنيا غير الدنيا.

كانت السيارة تقطع تلك الدقائق المعدودة التي تفصلنا عن المدينة ببطء شديد بناء على رغبة جدي فقد كان يريد استيعاب كل شئ. كان حدثا عظيما بالنسبة له، فهو على حد علمي لم يغادر منزلنا منذ سنوات طويلة حيث تأتيه بناته لزيارته ويأتيه الطبيب وقت الحاجة إليه، ولم يطلب منا يوما أو يعلن عن رغبته في الخروج أبدا. كان جدي صامتا على غير عادته. كان يحاول أن يتبين الأشياء من حوله قدر المستطاع. لم يكترث بالمبلغ الذي نفحه إياه موظف التأمينات

والمعاشات ، ولم يحفل بكلام الموظف الذي تأسف عندما رأى الرجل متهالكا لا يقوى على الوقوف ولا يرى أمام خطوة واحدة ، ولم يأبه به عندما قال :

- اعذرنا يا عم الحاج أنت معفى من القدوم في المرات القادمة يستطيع حفيدك أن ينوب عنك .

كان جدي في واد ونحن جميعا في واد آخر . لذا لم اندهش عندما طلب من جمعة السائق ونحن في مشوار العودة أن يتوقف في منتصف الطريق وبالتحديد أمام هويس الري الكبير. استندنى جدي ، وضع قدميه الواهنتين على راس جسم الهويس خفت عليه من الانزلاق ، فالنهر هنا جبار قوى كم من مره نسمع عن غرقى في ذلك المكان .

قال جدي :

- من هنا يتفرع النهر إلى ثلاثة مجار مائية أصغر حجما ، كل مجرى يروى عشر قرى كاملة وفى كل قرية كان لي فيها أيام عظيمة ، وفى هذا المكان كان يوجد سوق القطن الكبير حيث يأتي أبناء هذه القرى الكثيرة لبيع ما جادت به عليهم الأرض . كنت ترى سماسرة أرمن واجريج وأولاد بلد ويهود ، كان عالما ثريا وكانت أياما حافلة . في هذه البقعة بالتحديد اجتمع بنا طلعت باشا حرب ، نحن معشر تجار القطن الكبار لينبهنا من خطر اليهود على تجارتنا .

ثم انحدرت دمعة صغيرة مخترقة تجاعيد الأيام وفعل الزمن على وجه الرجل الوضاء الجبين . كانت عيناه صافيتين صفاء ذلك النهر تحت أقدامنا كان يشع منهما إشراق ولمعان لم أرهما فيهما من قبل ، لم يبال بكلام السائق الذي يحب أن نذهب حتى يكمل عمله ومع إصرار جدي على البقاء أمرت جمعة بالصمت وسأعطيه ما يريد . كان جدي كمن يودع الدنيا في هذا المكان الذي شهد مجده الغابر . تمشى قليلا في المكان الذي تحول إلى جرن يلعب فيه الأولاد الكرة . قال :

- كان هنا رجال لن ينجب الزمان مثلهم .. من هنا خرجت المظاهرات يوم نفى سعد باشا .. ومن هنا كنا نهتف للثورة ورجالها.. وهنا مات رفيق عمري بين يدي عندما قتل لثأر قديم .

ثم تمتم ببعض آيات القران وقال :

- يا ولدى إنها لا تدوم لأحد .

منذ ذلك اليوم لم يعد جدي كما كان فلم يعد يخرج للجلوس أمام المنزل كما كان يحب ولم يعد يتحدث إلا نادرا ، ولم يعد يقبل على طعام إلا بعد إلحاح ومعاناة ، حتى بعد أن تجمعنا جميعا حوله. أبنائه الثلاثة وأحفادهم وبناته وأزواجهم كل منا يحاول معرفة ماذا جرى له. أحضرنا له الطبيب ولكنه لم يفدنا كثيرا . اعتقدت أنى وجدت الحل عندما عرضت عليه أن احضر جمعة السائق ونذهب إلى حيث يريد . لم يهتم بكل ذلك ولم يتبدل حاله و من يومها لم نعد نسمع منه سوى سبوح قدوس يغير ولا يتغير .



(مهداة إلى المحب الكبير
الخديوي أنـور جعفـر)

كان الملل قد بدأ يتسرب إلى حضور الندوة بعد أن أطال الدكتور عزمي سعيد في الحديث عن الحضارة المصرية القديمة وكيف كان لها فضل الريادة في معظم العلوم المعاصرة وكيف أن عصور الضعف اللاحقة كانت السبب فيما لحق بها من اضمحلال وانهيار. إلا إن الأستاذ نور الدين كان خلافا للجميع هو الوحيد الذي ينصت إلى المحاضر باهتمام و شغف، ولم يكن ذلك بالأمر الغريب عليه فهو رجل موسوعي المعارف والخبرات، وكثيرا ما تراه يستمع إلى أية محاضرة في أي فرع من فروع المعرفة باهتمام واستغراق، بل ويستطيع أن يتكلم بفهم وعمق في أي موضوع يطرح للنقاش أمامه لكنه في العادة لم يكن يتكلم أو يدلي برأيه في شئ إلا إذا سئل.

وعلى الرغم من أن نور الدين مؤلف مسرحي كبير، تعد أعماله من كلاسيكيات المسرح العربي، نهلت منها معظم الفرق المسرحية بنهم لم ينقطع حتى الآن، إلا أنه كان قد انتقل منذ سنوات إلى قافلة الكتاب (من منازلهم) كما كان يحلو لصديقه الوحيد الباقي من زمرة الزمن القديم إسماعيل خالد المعروف بقفشاته اللاذعة ومقالاته الساخرة، كان الأستاذ قد تجاوز العقد السابع بعامين، ولكنه دائم الحركة لا يهدأ جم النشاط والحيوية وكأنه فى ريعان شبابه، فكثيرا ما تراه في الندوات الأدبية وفى مختلف المحافل الثقافية، وهو عاشق متيم للفنون التشكيلية وخصوصا فن النحت الذي كان يرى فيه امتدادا وتواصلا كبيرا مع الحضارة المصرية القديمة.

لم يكن نشاط نور الدين نابعا من حبه للثقافة والأدب فحسب، بل كان هناك سبب آخر هو الذي يدفعه دائما لقضاء ساعات طويلة من النهار خارج فيلته الصغيرة الأنيقة على نيل الزمالك.

كان يومه حافلا دائما بالكثير من المناسبات التي يدعى إليها، أحيانا لإلقاء محاضرة هنا أو هناك، أو لحضور عرض مسرحي، أو افتتاح معرض للفنون التشكيلية، ولكنه مع كل ذلك الزخم كان

حريصا على تناول وجبة الغذاء بمطعم الألفي الشهير في شارع عماد الدين العريق ، ذلك الشارع الذي شهد بداياته عندما كان كاتبا صغيرا في جريدة الأهرام ، محررا بصفحة الفن ، مكلف بتقصي أخبار الفنانين والفنانات ، وكم كانت سعادته بذلك التكليف الجميل . هو الذي عشق المسرح بجنون منذ ذهب مع والده لمشاهدة يوسف بك وهبي العظيم في رائعته كرسي الاعتراف ، وكثيرا ما يتذكر كيف خاف وبكى يومها من شكل الفنان حسن البارودى عندما ذهب مع والده لتحية الفنانين في غرفهم وراء الكواليس حيث كان والده صديقا حميما ليوسف وهبي . ولهذا ظل وفيا وحريصا على التردد على ذلك الشارع الذي شهدت مقاهيه وباراته لسنوات طويلة خلت جلسات رواد المسرح التي كانت تمتد بعد انتهاء عروضهم المسرحية إلى الفجر ، فكنت تجد على الكسار والريحانى ويوسف وهبي وجورج ابيض وعشرات الأسماء التي كان الجمهور يعتقد في ذلك الوقت انهم أعداء من شدة المنافسة المحتدمة بين بعضهم البعض .

لم تكن وجبة غداء الأستاذ تزيد كثيرا عن شريحة من اللحم المشوي والسلطة الخضراء ، بعدها يعرج كعادته إلى بار " انجلو " القديم حيث كان المسيو ماركو صاحبه صديقا حميما له والذي دائما ما يداعبه في انشراح وسعادة بأنه النادل الوحيد الباقي من حاشية الملك إذ كان ماركو هو البارمان الخاص لأحد البرنسات ، ولما قامت الثورة ورحل الملك وتبعته أغلب أفراد الأسرة المالكة ، آثر ماركو البقاء بمصر ولم يغادرها كما غادرها كل أهله تقريبا ، فاشترى ذلك البار من ابن عمه اسبيرو باندرياس واجتهد في جذب الرواد المحترمين له .

لم يكن الرجل مدمنا للشراب ، بل كان يكتفي بقدح من البيرة أو كأس من النبيذ الجيد الذي يصنعه ماركو بنفسه ولا يقدمه إلا للأصدقاء المقربين إليه .

كان الأستاذ يعيش بمفرده في فيلته الصغيرة التي اشتراها في أواخر الأربعينات عندما حولت إحدى مسرحياته إلى فيلم كبير أنتجه استديو مصر وقام ببطولته النجم الشهير آنذاك محسن سرحان .

لا يعرف نور الدين ما هي الأسباب الحقيقية التي دفعته إلى اختيار الزمالك للسكنى رغم أنه الحي الذي اختص بهم المقتدرون والأثرياء أنفسهم ، كان يفضل المنيل أو العباسية ولكنه سرعان ما قر عزمه على شراء تلك الفيلا بالزمالك ليكون مع صفوة القوم ، أفاق الأستاذ من سيل ذكرياته تلك على صوت إسماعيل خالد ينبهه بان الدكتور عزمي قد أنهى المحاضرة .

عني الأستاذ بجمع أوراقه بحرص وعناية الشيوخ وخصوصا أن بها مقالة الأهرام التي تحدث فيها هذا الأسبوع عن المهرجان الجديد للمسرح التجريبي . وبينما هو كذلك سمع صوتا نسائيا لطيفا لفتاة في العشرينات من عمرها ، ذات شعر اسود طويل فاحم تركته مسترسلا على حريته فتطايرت خصلاته مع الهواء المنبعث من تلك المروحة العتيقة غير البعيدة من مجلسه .

أحس نور الدين وكأنه يعرفها منذ زمن طويل ، كان وجهها مألوفا لديه لدرجة انه أمعن النظر فيها ، ولكنه لم يستطع أن يجزم إن كان قد رآها من قبل أو أن كانت تشبه إحدى معارفه من الجنس اللطيف . أراح نفسه بأنها قد تكون إحدى تلميذاته في الجامعة الأمريكية حيث كان يحاضر مرة كل أسبوع عن المسرح .

لفت انتباهه ذلك العقد الذي يزين جيدها ، اغلب الظن انه من اللؤلؤ الطبيعي ، فقد كان الأستاذ من المولعين بذلك الجوهر النفيس ، خصوصا بعد تلك الفترة التي عمل فيها رئيسا لتحرير إحدى المجلات في الخليج في أوائل السبعينيات .

احتوى يدها بين راحتيه شعر ببرودتهما ، كانت الفتاة مرتبكة تبدو عليها الرهبة والخجل . هدأ من روعها بابتسامة أبويه فكثيرا ما

صادف شبانا يتهيبون الحديث معه ، وهو الكاتب الكبير نور الدين السيد ، علم المسرح المصري والعربي المعروف . وصاحب القلم الشجاع الذي أودى به ذات مرة إلى قضاء ثمانية عشرة شهرا في سجن الواحات في أوائل الستينات . ورغم صلابته وجرأته في الكتابة كان الرجل يتحاشى النساء بقدر الإمكان فمنذ أن فقد زوجته منذ اكثر من عشرين سنه وسفر ابنه الوحيد إلى كندا واستقراره هناك وهو يعيش وحيدا بلا أنيس ، لم يبق له من الزمن الجميل سوى عم نوح الجنايني والذي آثر الإقامة مع الأستاذ ، ورفض العودة مع أبنائه إلى قنا بعد أن اكملوا تعليمهم واصبحوا رجالا جديرين بالاحترام ، لم يستطع نوح الذي قضى مع الأستاذ اكثر من أربعين عاما فراق الرجل الذي أحبه وخدمه بإخلاص طوال هذه المدة .

كانت الفتاة تتحدث بخجل بالغ وهي تخبره بأنها تعد رسالة الماجستير في مسرحه وأنها تتمنى أن يساعدها . شعر الأستاذ بأن خيطا حريريا خفيا يشده إلى الفتاة الواقفة أمامه ، لم يعرف ما الذي جعله يخرج من جيبه بطاقته المدون عليها عنوان منزله ، ولا لماذا ضرب لها موعدا في تمام الواحدة بعد ظهر الغد وهو الذي لم يكسر عادته بتناول الغداء في مطعم الألفي في تلك الساعة منذ سنوات طويلة .

كانت الواحدة تماما ، وكان عم نوح يجلس كعادته أمام غرفته بجانب باب الفيلا الخشبي العتيق وصوت أم كلثوم ينساب حانيا من جهاز تسجيل صغير بجانبه ، بينما جلس الأستاذ نور الدين على كرسي من الخيزران تحت كرمة العنب الصغيرة ، وأمامه منضدة من نفس النوع وقد انهمك في القراءة .

أفاق على صوت عم نوح وهو يخبره بقدوم الفتاة التي سرعان ما أخذت مجلسها على الكرسي الوحيد القريب من الأستاذ . لا يدرى نور الدين لماذا تذكر زوجته في هذه اللحظة بالذات ، حيث إنها هي

التي اقترحت عليه عمل هذه التكعيبة وهي التي أشرفت على العمل عندما قاموا بتركيبها وهي التي كانت ترعى كرمة العنب حتى أصبحت تغطى المكان وتحوله إلى جنة صغيرة .

كان البخار يتصاعد من الشاي الذي قدمه لهما عم نوح بعد أن وضع فيه بعض وريقات النعناع الطازج الذي يزرعه بنفسه في الحديقة وكانت الفتاة ما تزال أسيرة خجلها ولم تتحدث إلا بعد أن شجعها الأستاذ . بدأت تعبث في حقيبتها وكأنما تبحث عن شيء ، إلى أن أخرجت من أحشاء الحقيبة السوداء الصغيرة صورة قديمة قدمتها للأستاذ دونما تعليق .

أمسك الأستاذ الصورة بعناية وقربها إلى عينيه الواهنتين من كثرة القراءة ثم علت أساريره إمارات أسى ، بدا كمن فقد عزيزا في تلك اللحظة أمعن الرجل في صمته بينما هي تنظر إليه بترقب حتى سألها من أين حصلت على تلك الصورة ؟

انفرجت أسارير الفتاة قليلا بعد أن ارتشفت رشفة صغيرة من قدح الشاي . كانت الصورة تعود إلى اكثر من ثلاثين عاما ، كانت للأستاذ جالسا في أحد مدرجات الجامعة وكان المدرج خاليا إلا من فتاة تجلس بجواره وقد بدت في الصورة كمن تنصت إليه باهتمام ، كان يبدو على فتاة الصورة الوقار والجمال الهادئ .

حمله طيف الذكرى إلى اليوم الذي رأى فيه سحر البشرى للمرة الأولى كان ذلك بعد أن أنهى محاضرة في كلية الآداب عن المسرح الملحمي عند بريخت تذكر جيدا كيف اقتحمته بحماسها كانت سحر البشرى ترأس اتحاد الطلاب ، تكتب القصة القصيرة وتشارك في معظم الأنشطة الثقافية ، استوقفته بعد الندوة وحاصرته بسيل من الأسئلة ، وجد نفسه يجلس على أحد المدرجات الخالية وكانت تلك الصورة التي التقطتها لهما إحدى زميلاتها . تذكر كيف توطدت علاقتهما ،وكيف كانت تذهب إلى مكتبه في الأهرام ، كان يستمتع

بحديثها الشيق المليء بعنفوان الشباب وحماسه ، كـانت تقـرأ بنـهم .
تذكر ذلك اليوم الذي أتت فيه إليه بمكتبه فى الجريدة وكيف كـانت الدموع تترقرق فى عينيها وهى تشكره لأنه نشر لها إحدى القصـص في الجريـدة . أحس نور الدين وقتها أنها الفتاة التي انتظرهـا كثيرا وهم أن يفاتحها بمكنون قلبه تجاهها ، ولكن أيـن هـو منـها ؟ وهـو الرجل الذي تخطى الأربعين بقليل أما هي .. فقد كانت زهـرة تتفتـح لتوها ، تخطت العشرين بعام واحد . ولكنه قـال لنفسـه ممنيـا إياهـا الأماني .. متى كان الزمن عائقا أمـام قـوة الحـب الجارفـة . إن شـلال الحب الهادر كفيل بأن يجرف أمامه كل الصعاب والموانع . لم يسـتطع أن يتحمل يوم أتت إليه لتخبره إنها لم تعد تقوى علـى فراقـه وأنـها خلقت له وانه يجب عليه أن يتقدم للزواج منها . ولكن لم يكن يتوقع أن تكون نهاية ذلك الحلم الجميـل بـهذه القسـوة والوحشـية ، فلـم يكتف والدها برفضه بجفاء ليس لفارق السن فقط ، ولكـن لكونـه مجرد كاتب يتكسب قوته من قلمه بل وغالى في تعذيبـه وقتلـه ببـطء بان زوجها لابن أخيه ، أحد الأعيان الكبار الذي سرعان ما أبعدهـا عن القاهرة في عزبته الكبيرة على نيل المنصورة .

منذ ذلك اليوم الذي رحلت فيه إلى المنصورة انقطعت أخبار سحر البشري عنه ، حاول عبثا الذهاب إلى حيث تعيش مع زوجها ليراها ويفوز بنظرة منها ، ولكن العزبة كانت حصينة أشبه بقـلاع القـرون الوسطى .

لم يتزوج نور الدين إلا بعد سنوات . كانت سكرتيرته وكـانت تعرف قصة حبه الوحيد فحافظت على تلك الذكـرى حتـى توفيـت أثناء إنجاب طفلهما الوحيد توفيق والـذي اسمـاه نـور الديـن بتوفيـق تيمنا بصديقه وزميله في الأهرام توفيق الحكيم .

للحظة أفلق من تأثير الصورة التي أهاجت ذكرياته ونكأت جـراح كان يعتقد أن الزمن قد شفاه منها . سأل نفسـه كيـف حصلـت هـذه

الفتاة على تلك الصورة انه يعلم جيدا أن صديقة سحر التي التقطت الصورة لهما أعطته إياها ونسخت أخرى أعطتها لسحر . تدافعت الأسئلة بعنف في رأسه من تكون هذه الفتاة التي تجلس أمامه ترتشف الشاي في براعة وهدوء ؟

لم يكن يتصور ما أخبرته به الفتاة ، عندما قالت أنها ابنة سحر البشرى . ثم أردفت .. ودع أبي الحياة منذ سبع سنوات . وبعد برهة صمت أضافت .. لقد نشأت على حب أعمالك وكتابتك المسرحية إذ كانت أمي تحتفظ بكل ورقة تكتبها وبكل خبر يكتب عنك بل أنها كانت تأخذني أنا وأخي سالم لنشاهد أعمالك المسرحية في المسرح القومي رغم أننا لم نكن نسكن في القاهرة في تلك الفترة . بل إنها هي التي شجعتني على دخول كلية الآداب ودراسة المسرح وهى التي أوصتني بالحصول على الماجستير في أعمالك المسرحية .

كان الرجل يستمع إلى الفتاة بسعادة وحب وبدت الفتاة وكأنها سحر البشرى عندما رآها للمرة الأولى.

قالت الفتاة .. كانت آخر كلماتها لي أن أعط تلك الصورة للأستاذ نور الدين واطلبي منه النصيحة دائما ثم رحلت بعد أن عانت كثيرا من سرطان لم يستطع جسدها النحيل تحمل شراسة مخالبه . كانت الفتاة ما تزال تحكى وتسترسل في الحكى بينما حلق نور الدين بعيدا بعيدا .


جهنم
الخمرا

لم تستطع الأيام الطويلة التي قضاها مفتونا بـها دون أن يتقدم نحوها ولو بخطوة واحدة أن تثنيه عن عزمه في الاستمرار في حبه الغريب والعجيب . فعلى الرغم من تغير أوضاع كثيرة من حوله ، حتى هو نفسه لم يعد كما كان قبل عشر سنوات عندما رآها للمرة الأولى . إلا أنه ما يزال مصراً على عشقه لها ويدافع عنه بكل ما أوتي من قوة ومنطق . وكثيراً ما أنـب نفسه على ذلك وكثيراً ما حاصرته الأسئلة العقيمة من أصدقائه الذين علموا بحكايته ولكن دون جدوى فلقد كان لا يستمع لأحد ويشل تفكيره كلما حادثه أحد في أمرها وكثيرا ما كان يردد تحدثوا معي في أي شئ إلا عنها فانتم لا تعرفون شيئا .

ثم ما يلبث أن يأخذ نفسا عميقا من سيجارته المشتعلة دائما عندما يفاجأ نفسه بسؤال لم يعرف إجابته حتى الآن .. ما الذي يجبره على ذلك وماذا فيها عن غيرها ؟ فهي أقل من كثيرات خطبن وده . حتى ذلك اليوم الذي رآها قادمة نحوه والابتسامة لا تفارق ثغرها كانت تحادث الناس وكانت ضحكاتها العالية الممزوجة بشيء من دلال الأنثى تجلجل في فضاء المكان ، تعلقت عيون الرجال بها تفحصوها كان بصرهم معلقا بفستانها الرخيص الذي التصق بجسدها مبرزا مفاتنها عن عمد منها فأشعل النار في أفئدتهم التواقة إليها . أما هي فقد كانت تتصرف بحرية من تعتز بل وتفخر بجمالها الذي لا يوجد له مثيل في القرية كلها . ولم يكن حسني - هكذا كان اسمه - يريد أن يصدق أن المرأة الوحيدة التي عشقها وافتتن بها عاهرة يتبادلها الرجال ليلا كما يتبادلون "الجوزة" في غرزة عبده الكلوب وان تلك المرأة التي بكى وانتحب ليلة أن تزوجت بعوضيين الموظف في مصنع البلاستيك وذهب إلى والده ليطلب يدها فينخرط الرجل في الضحك على ابنه الذي ما يزال طالبا في الثانوي ويريد الزواج من إحدى الفلاحات وهو ابن لمدير إدارة الري بالمحافظة ثم ما لبث أن عنفه ووبخه . حتى بعد زواجها لم ينسها وبعد أن أنجبت طفلين لم يتغير في

الأمر شيء . لم يشأ أن يسمع كلام الناس كيف أنـها تستقبل الرجـال بعد خروج زوجها الطيب إلى وردية الليـل في المصنـع بـل انـه كـان لا يقوى على سماع أحد الشباب وهو يتحدث بإعزاز مفرط لا يخلو من الكذب عما فعلته أمس معه وكيف أن مزاجها هذه المرة كان احسـن من المرات السابقة .

كانت قريتهم هادئة ووديعة تحدثت قليـلا في أمرهـا ثـم مـا لبـث الناس أن اعتادوا على الأمر فكما يوجد النيل ويوجد وابور الطحـين كانت توجد ثومه التي بتبادلها الرجال وتحقد عليها النسـاء كمـا يوجـد أيضا ذلك المعبد الروماني خارج القرية بقليل .

كان المعبد صغيرا ومهيبا في نفس الوقت واغلب الظن انه كان استراحة للجنود المكلفين بجمع الضرائب من الشـعب .وكـم كـانت سعادة حسنى عندما كـان يذهـب إليـه مـع عمـه الدكتـور عصفـور المنباوى الذي يشغل منصبا مهما في إدارة الآثـار . كـان الرجـل يتسـع صدره لعشرات الأسئلة المكررة مـن حسـنى عـن المعبـد وعـن مـدى أهميته الأثريـة وعـن اسـم قريتـهم القديـم كمـا وجـدوه في إحـدى البرديات بجانب المعبد ولم يكن حسنى يخطر بباله أن ذلك المعبد الـذي يعشقه ويجلس الساعات الطوال بجانبه سـيكون المكـان الـذي يشـهد انكساره وأسوأ لحظات عمره تعاسة .

كانت تلك المرأة أنثى بكل ما تحمل الكلمة من معان ومع ذلـك لم تكن تثيره كما تثير الرجال الآخرين فقد كان يراها هبة من هبـات الله على عباده ، كان يتلمس لها الأعذار وينهر كل من يتحدث عنها بسوء، ولم يكن يتخيل أن هذا الملاك الطاهر وان هذا الكائن الرقيق المرهف الحس من الممكن أن يكون موطن للعفن وبؤرة للنتانة وان هذه المـرأة التي يحبها تمتهن مهنة من أحقر المهن التي عرفتها الإنسانية . أما هـي فكانت لا تعلم عنه شيئا سـوى انـه(واد تلميـذ) دائمـا مـا يرمقـها بنظراته غـير المفهومـة لهـا ولم تـزل مندهشـة كيـف أنـه طـوال هـذه

السنوات لم يحادثها ولم يطلب من نعيمه بائعة الترمس والتي تسهل لها البغاء مقابل أجر معلوم أن تأتى له بها طالما هو لا يرفع عينه من عليها كلما رآها .

كان حسنى يراها في مدينة أفلاطـون الفاضلـة ملكـة متوجـة علـى عرش العفة والجمل ، وكانت هي تراه " واد خيبة ومبيعرفش حاجة " .حتى بعد أن سافر حسنى للعمل على إحدى سفن الركاب القبرصية والتي تتخذ من اليونان ومالطة وقبرص مرافئ لها لم ينس تلك المـرأة لحظة واحدة . فباءت محاولات زميلاته في العمل من جميلات أوربا في التقرب منه بالفشل الدائم لان قلبه كان معلقا هنـاك في قريتـه بتلـك المرأة التي احبها ولم يستطع أن يحب غيرها .

حتى ذلك اليوم الذي قرر فيه خليل أعــز أصدقائـه ورفيـق غربتـه أن يعـالج صديقـه ممـا هـو فيـه بعـد أن رجعـا إلى قريتـهم في إحـدى إجازات الصيف الجميلة .وبينما هم جلوس قال خليل بحماسـه المعتـاد كلما أراد شيئا هيا بنا نذهب إلى المعبـد يـا حسـنى ولكـن حسـنى لم يوافق أول الأمر ثم انصـاع إلى طلـب صديقـه بعـد إلحـاح واهتمـام غير عادى فهو كما يعرف عن خليل لا يكترث بالمعبد ولا يذهب إليـه إلا نادرا .

كانت نسمات الصيف تداعب شعر حسنى المسترسل. بينمـا كـان خليل شارد الذهن لم يتحدث قط حتى بعد أن خلفا القريـة وراءهمـا وبدا المعبد من بعيد نحيفا كئيبا إلى أن بدأ حســنى يقـرأ مـن الذاكـرة إحدى قصائده التافهة في وصف جمالها وأدبها ورقتها فلم يعـد بمقـدور خليل الاستماع إلى هذا العته من صاحبه ، كـان خليـل لا يتحمـل أن يرى أعز الناس إليه مسحورا مجذوبا إلى امرأة لا تعرف حتى اسمـه ولا تكن له أية مودة بل هي بالأحرى مجرد امرأة فاجرة.ثم صـاح خليـل في صاحبه أن اصمت كفى إنها لا تستحق كل هذا إنها .. ثم ما لبـث أن قال هيا نرجع إلى القرية يا حسنى .لم يفـهم حسـنى مـا يحـدث في أول

الأمر ولكنه هذه المرة هو الذي أصر على تكملة المشوار وخصوصا انه لم يبق بينهما وبين المعبد إلا خطوات محدودة .

استند حسنى بظهره إلى التمثال الوحيد الذي مازال محتفظا بشكله كاملا كان لفينوس ألهة الجمال عند الإغريق أما بقية التماثيل القليلة فكانت مشوهة بفعل الزمن وعوامل التعرية ولم تسلم أيضا من لصوص المقابر وعبث الأهالي الذين كانوا فيما مضى يستولون على أحجاره لأغراضهم الخاصة دون علم بقيمة المكان التاريخية .

أما خليل فكان زائغ العينين لم يجلس ولم يهدأ له بال منذ وصلا إلى المعبد ، كان كأنما ينتظر حادثا جللا . احتار حسنى وتعجب من أمر صاحبه هذه الليلة إلى أن سمعا ذلك الصوت القادم من داخل المعبد من قدس أقداسه ومن غرفة الكهنة التي طالما ترددت فيها تراتيل المنشدين وقدمت فيها القرابين . كان الصوت لأنثى في لحظة من اللحظات النادرة التي تصل فيها المرأة إلى ذروة النشوة . كان الصوت يعلو مصحوبا بضحكات مشروخة من صدر رجل أهلكه الدخان . ثم ما لبث أن قام حسنى منتفضا من مكانه وتبعه خليل إلى داخل المعبد. كان المهدى القهوجي وكانت هي . كان نهداها البارزين بعنف يلمعان تحت أشعة القمر ولم يكن في عينيها هذا البريق الذي طالما رآه . لم يفهم القهوجي ما يدور من حوله بعد أن حاول أن يدارى عورته التي انكشفت تماما ، أما هي فلم تهتم ولم تحفل بوجودهما ، وكانت ما تزال تحتضن الرجل ، ولم تغير من وضعها كثيرا ، غير أنها توجهت إلى خليل قائلة (هو ماله صاحبك مبيكلمنيش ليه ياسى خليل هي القطة كلت لسانه ولا إيه) ثم أطلقت ضحكة لعوب دوت في فناء المعبد وقطعت ذلك الصمت القاتل . لم يستطع حسنى أن يتحمل اكثر من ذلك فارتمى في أحضان خليل ثم أجهش في البكاء.


شارع
صيام

كانت المسافة بين شارع صيام وبين ميدان أم كلثوم خطوات معدودة إلا انك تحس بانتقالك إليه وكأنك انتقلت إلى عالم آخر بمجرد أن تصل إليه ، كان مقهاه هو البوابة الأولى لدخوله ، مقهى صغير مزدحم دائما بالناس ، تجلس فيه النساء على غير عادة أهل بلدنا .

كان للشارع مدخل واحد ، هو ذلك الذي يقع المقهى الصغير أو مقهى الفنانين على ناصيته ، أما من الداخل فكان عالما آخر يمكنه الاستقلال بذاته وتكوين دولة أخرى ، كما يقول أسعد حسونة زميلي في الافتتان بحب ذلك الشارع الغريب والعجيب والذي تقطنه فقط فرق العوالم والآلاتية وكل من يمت بصلة إلى كار الفن والفنانين ، ابتداء من وكيل الفنانين في المدينة على أبو الأنوار ، وانتهاء ببائعي الآلات النحاسية لفرق الدرجة الثالثة ، حتى عدولة الخياطة استطاعت أن تأخذ دكان رمضان المكوجي الكائن في آخر ذلك الشارع بعد وفاته لتحيله إلى ورشة لتفصيل بدلات الرقص .

كان اهتمامي به له ما يبرره وخصوصا أني كنت معجبا بتلك الفئة التي كنت أراها تحيى أفراح بلدنا ، كما كان الجمهور في تلك الأيام معجبا بهم ، وكم كان الناس يتسابقون في السلام على أفرادها والتودد والتقرب منهم . اذكر أنني كنت أجلس وأنا لم أتجاوز العاشرة من عمري بعد على قدمي خالي لأشاهد العاب فرق الأكروبات التي كانت أيضا تقطن هذا الشارع وأغلب الظن أن اسم هذه الفرقة كان أولاد المصري . لكنها اندثرت الآن بعد ظهور التليفزيون وانتشار عروض السيرك في كل المحافظات . كم كنت سعيدا وأنا أشاهد ذلك الرجل الظريف الذي يطلى وجهه باللون الأسود ويقلد الفنان الراحل على الكسار وكان يسمى نفسه بربري مصر الفصيح . ولم أكن أميل إلى أكثر من ذلك فلم أكن أحب

الرقص أو الغناء ، فقط كان يجلب لبي ذلك الرجل الذي كـان يمشـي على حبل مشدود ومن تحته كان الجمهور خائفا يترقب .

يقول الناس أن ذلك الشارع حوله الإنجليـز أثنـاء الحـرب العالميـة الأولى إلى مكان للخلاعـة والعـهر للترفيـه عـن جنودهـم في المنطقـة الشمالية أو قطاع الدلتا ولم يكن مـن بـين نسـائه أيـة مصريـة قـط ، كانت بغايا الشارع من الأجنبيات الشقر اللائى كن يملأن شـوارع المنصورة ، ثم شيئا فشيئا وفد إلى الشارع بعض الفنانين والعـازفين والعوالم وبعد أن أغلقت الحكومة بيوت المجون خلا الشارع للعوالم لسنوات طويلة . أصبح شارع صيام الرافد الأساسي لشارع آخر أكـبر وأشهـر ، هو شارع محمد على بالقاهرة .

ذات يوم زفت فيه البشرى بـزواج محمـود ابـن خـالي ، وبـالطبع كانت إحدى فرق شارع صيـام علـى موعـد معنـا . أخـذت عربـات الحنطور تتوافد إلى منطقتنا وأمامها الفرقـة النحاسـية الـتي بـدأت في العزف بأصوات جميلة لتعلن عـن وصولهـم . ازدحـم المكـان بـالخلق ونزلت الفرقة واتخذت منزلنا مكانا يستبدلون فيه ملابسهم .

كانت أمي قد جهزت لهم الكثير من الأطعمة والحلوى ، ولأنـي لم اكن أتخيل أنهم بشر مثلنا يأكلون ويشربون فقد كانت دهشـتي لا حد لها وأنا أرى النساء منهن يتبادلن " غابـة الجـوزة " كمـا يفعـل الرجال تماما ، بل أن عطيات المتولوجست كانت أكثرهم شـراهة في نفث الدخان الكثيف من منخريها بشكل جعلني أخاف منها وأذهـب مرتعدا ظنا منى أن المرأة تحترق .

غير أنى كنت حريصا علـى أن اجلـس بجـانب عـم خليـل منـادى الفرقة ، الذي كان يقوم بدور المذيـع علـى المسـرح ، كـان في حـوالي الأربعين يميل إلى النحافة بعض الشيء ، خفيف شعر الرأس ولكنـه قد ثبت ما تبقى منه بالفازلين وفى مقدمة أسنانه سنة ذهبية لذا أطلق

عليه الناس خليل أبو سنة ، لا اعلم لماذا أحببته هـل لأنـه سمح لي أن اضرب على الطبلة الملقاة في أقصى الغرفة قليلا أم لأنه اخذ يتجاذب معي أطراف الحديث وأعضاء الفرقة من حوله يحاولون ملاطفتي حتى تلك اللحظة التي فاجأني الرجل فيها بسؤال : " تحب تتزوج مين من الستات دول يا عفريت ؟ "

كانت النساء مـن أعضـاء الفرقـة يـزدن علـى الثمانيـة معظمـهن نراهن دائما فى كل فرح ، غير أن إحداهن لم تكن قد تجاوزت بعد السابعة عشرة من عمرها ، جميلة بيضاء ذات شعر فاحم طويل يصل إلى أعلى ردفيـها قليـلا ، نحيفـة ، لم تكـن مثـل زميلاتـها اللاتـي يجلسن ولا يستطعن النهوض إلا بصعوبة بالغة ، لأنه في تلك الأيام كانت بدانة الراقصة من سمات الجمال فيـها غـير أنـى أشـرت إليـها مخبرا عمى خليل " أنا عاوز أتجوز دى " فضجت القاعة بالضحك الممزوج بسعال أنفاس الدخان الأزرق التي عبقـت المكـان بعـد أن أعطاهن خالي قطعة من " الحشيش " تحية من أهل العريس . أما أنـا فقد انشغلت بالنظر إليها كانت خجولة على الرغم من امتهانها لمهنة يعافها الكثيرين ، دائما كان جدي يقول أن وراء كل راقصـة مصيبـة من مصائب الزمن وانه ما من سيدة مهما بلغ بها العـهر أو الفجـور تسمح لنفسها بالعمل في تلك المهنة إلا مرغمة أو تحت وطأة ظروف أقوى منها بكثير ثـم يتمتـم كعادتــــه " اللـهم استـر علـى ولايانـا يا كريم " .

كان المسرح قـد جـهز تمامـا لإحيـاء الفـرح وبـذل عمـل الفراشـة والأنوار جهدا خارقا ليحولوا شارعنا الذي كان ينام بعد صلاة العشاء تقريبا إلى تحفة فنية تتـلألأ بـالأضواء المختلفـة الألـوان بينمـا صـوت عايدة الشاعر ينطلق من ميكرفون طغى على المكان بأغنيتـها المعروفـة " ما تزوقيني يا ماما ".

اهتمت أمي جيدا بهندامي فألبستني بدلة العيد ، بعد أن وضعت في جيبي منديلا أبيض ثم عطرتني بعطر أبى الذي لم يكن يستعمله إلا في المناسبات ، كان محمود ابن خالي سعيدا وهو يرى الأحباء والأقرباء يشاركونه فرحته بليلة العمر .

أما أنا فقد كنت سعيدا لأني اجلس على المسرح وارى الفنانين عن قرب فقد كنت في موقع جيد يحسدني عليه أقراني الذين جلسوا بعيدا وبالكاد شاهدوا الأكروبات والغناء ورقص تلك الفتاة التي سلبت العقول فخرجت الآهات من فم الشباب قوية ومدوية ، كانت الفتاة بارعة ومتمكنة فطلبها الناس كثيرا . غير أنى كعادتي لم استطع مقاومة النعاس الذي تسرب إلى فجأة بعد تعب يوم طويل من الجري واللعب . ويبدو أن أحدهم حملني إلى بيتنا بينما كان هناك الكثير من الفقرات التي لم تقدم بعد ، فمن عادتهم ألا ينتهي الفرح قبل أذان الفجر . كنت أنتبه أحيانا على صوت الجمهور خارج الدار عندما يصيح نشوة و إعجابا ولكن النعاس كان كفيلا بردى إلى حالة من الخمول مرة أخرى .

ثم أفقت تماما على رائحة عطر نفاذة . وجدت نفسي نائما بالغرفة التي يبدل فيها أعضاء الفرقة ثيابهم .كان العطر قويا فملأ حواسي وكياني . كانت هي بمفردها أتت لتغير ملابسها استعدادا لرقصة جديدة . كانت المرة الأولى التي اسمع فيها صوتها عندما قالت :

"أنا صحيتك يا حبيبي ؟ " ، لم أنبس ببنت شفة ، فقط كنت أتطلع إليها حتى قالت "ويعدين معاك أنا عاوزه أغير هدومي الناس مستنيانى بره ". ثم نظرت إلى متفحصة بعد أن قالت "والله انته باين عليك عينيك زايغة " .

لم اعرف ماذا أفعل فقط كنت انتظر أن تطلب منى أن اخرج أو حتى أن أشيح بوجهي إلى ناحية الحائط غير أنها بدأت في حل تلك السوستة الطويلة على ظهرها وقالت لنفسها بصوت مسموع

" دا عيل ومش عارف حاجة ". ثم خلعت عنها بدلة الرقص الـتي لم تكن تغطى الكثير من فتنتها وقد إمتزجت بعرقها وعطرها الذي ملأ المكان . بدت عارية تماما . كان شـعرها الطويـل يتطـاير بتأثـير الهـواء المنبعث من مروحتنا المعلقة في سقف الحجرة . كانت تمسـح جسـدها بقطعة قماش صغيرة حتى تزيل آثار العرق وتعلل من زينتـها لأنـها بذلت مجهودا كبيرا في الوصلة الأولى . إلى أن جلست بجـواري كمـا هي ثم أخذت يدي وبدأت تقربـها مـن ثدييـها النـافرين والبـارزين بعنف . كنت طيعا في يدها مثل قطعة القماش التي كانت تمسـح بـها جسدها منذ لحظات . لم أحرك ساكنا فقط كنت انظر إليها . ولا أعلم الآن هل كنت أدرك وهى تمسح بيدي على حلمـة ثدييـها أو عندمـا احتضنتني وبدأت في تقبيلي بعنف .كنت فقـط أحـس بجسـدها دافئـا وهى تحتويني حتى أنى تمنيت ألا تتركني أبدا . حتى قبلتني قبلة أخـيرة في فمي وانسحبت في هدوء ثم بدأت في ارتـداء بدلـة رقـص أخـرى بعد أن سمعت صياح عم خليل وهو يقول في ميكرفون الفـرح مـهدئا الجمهور " ستأتي إليكم حالا " . خرجت من غرفتنا بعد أن طلبـت منى أن يظل ما حدث سرا بيننا .

كانت نظرتها مبتسمة لي وهى تغادر الغرفة ، وكان ذلك هـو أخـر ما وقعت عليه عيناي منها . بعد ذلك كنت أداوم علـى حضـور أي فرح في بلدنا علني أراها مرة أخرى ولكنني في كـل مـرة كنـت أصـاب بخيبة آمل ، فقد اختفت تماما وكأن الأرض قد ابتلعتها .

مرت أيام طويلة بل سنوات منذ تلك الليلة وطيفها لم يفارق خيالي أبدا حتى بعد أن التحقت بالمنصورة الثانوية كنت مـا أزال أتطلـع إلى شرفات الشارع كلما مررت به ، صحيح أنه قد تبـدل وسـكنه أنـاس من غير طائفة الفنانين وصحيح أن عم خليل قد توفى وان الرجـل الذي كان يطلى وجهه ويضحك الجمهور أصبح يجلـس وحيـدا أمـام الشارع عصر كل يوم يبيع الليمـون في سـلة صغـيرة مـن الخـوص .

واغلـق المقـهى وتحـول إلي سـوبر مـاركت فـاخر وأزيلـت كثـير مـن اللوحات الخاصة بالعوالم ورحل من رحل إلى القـاهرة وخصوصـا إلي شـارعي الهـرم ومحمـد علـى وولى زمانـهم وأصبـح النـاس يحيـون أفراحهم بفرق من الشباب ، وفى نوادي أنيقة وفاخرة غير أنى مازلت أمر كل يوم أمام الشارع وأطيل النظر في الشرفات وفى النساء اللاتي يجلسن فيها لعل وعسى .


حكاية
سلامة
المصري

لم يكن أحد يتوقع ما حدث ، وأنــه في ليلـة واحـدة مـن ليـالي الشتاء الباردة ينهار صرح شامخ طالمـا نظرنـا إليـه بإعجـاب وفخر . ولكن كان ثمة تساؤل انتشر بين الناس كما ينتشر الوباء ،ولد خافتا ثم سرعان ما نما واسـتفحل حتـى اصبـح الجميـع يجـاهرون بـه وخصوصا ذلك النفر من العواجيز الذين يجلسون أمام الجامع الكبير بعد صلاة العصر كان ذلك التساؤل الذي فرض نفسه بإلحاح :

- هل انخدعنا فيه طيلة ثلاثين عاما أم أن شيئا ما قد تغير داخله وأنه سيعود يوما ما كما عهدناه ؟ .

غير أني لم أكن أصدق أن ينتهي سلامة المصـري بـهذه السـهولة ، بل ويصبح مجرد حكاية تلوكها الأفواه على سلالم الجامع أو أن يصبـح حدوته من حواديت العيال على إحدى المصاطب في الليالي المقمرة.

كان سلامة المصري بالنسبة لي مثالا نادرا للشجاعة والقوة والطيبة في آن واحد . ولا أدعى أن حبي له كان منزها عـن الغـرض أو المنفعـة ولا أخفى عليكم أنى كنت أحظى منه أكثر من أقراني بتلك الحلـوى التي لم أكن قد رأيت مثلها من قبل والتي كان يخرجها من تلك العلبـة الصفيح الموضوعة دائما بجوار سريره الصغير المتواضع .

كانت أسعد لحظاتي عندما ترسلني أمي إليه وقد حملتـني ببعـض أرغفة الخبز الساخن التي خرجت لتوها مـن نـار الفـرن والـتي كـان سلامة المصري يحبها .

كان سلامة المصري خادما بالجامع الكبـير ، وعيـت علـى الدنيـا فوجدته هكذا ، كان الرجل نحيلا قصير القامة كثيف الشعر أسـوده ، رغم أنه قد تجاوز الستين بقليل إلا أنه كان مختلفا عـن رجـال قريتنـا ليس بسـبب بشـرته البيضـاء أو عينيـه الزرقـاوين فحسـب ولكـن لارتدائـه حتـى يومنـا هـذا القميـص والبنطلـون ، وتحدثـه بلهجـة القاهريين كما يقسم بذلك عم شاكر الخضري ، والذي كـان يذهـب

كثيرا إلى القاهرة لزيارة ابنته التي تزوجت هناك من أحد أقربائه ، ورغم مقام سلامة في قريتنا لأكثر من خمسة وثلاثين عاما منذ ذلك اليوم الذي وجده الناس فيه نائما في صحن الجامع ، ثم ما لبثوا أن اعتادوا عليه و وأحبوه لما وجدوه فيه من همة ونشاط في تنظيف المسجد بشكل لم يعهدوه من الشيخ مغاوری رحمه الله والذي حل سلامه في غرفته بجوار المئذنة .

لم يحاول أحد من الناس في تلك الأيام أن يسأله عن بلده ولماذا اختار قريتنا لتصبح سكنا له ، ولم يسأله أحد لماذا لم يتزوج حتى الآن رغم إلحاح الشيخ مسعود إمام المسجد والصديق المقرب إلى سلامة عليه في أن يختار له بنت الحلال . خصوصا بعد أن انتشرت شائعة أن سلامة متزوج واحدة من بنات الجن عشقته ومنعته من أن يتزوج إنسية ، وعندما أخبرته بذلك ذات مرة استغرق في نوبة من الضحك ظل صداها يتردد في فراغ المسجد الكبير .

لم يكن إعجاب الناس بسلامة نابعا من خدمته الفائقة في تنظيف المسجد والعناية به ورش الماء أمامه والاهتمام بدورات المياه بشكل لم يعرفوه من قبل ، ولا حتى مواظبته على رفع أذان الفجر كل يوم وإنارة الفانوس الوحيد في الجامع ولا حتى قيامه بدور المسحراتی في شهر رمضان ، ولكن كان الإعجاب بسلامة كان نابعا من شجاعته التي فاقت الوصف فتناقل الناس حكاياته مع تجار المواشي وبائعي الفخار في أسواق القرى المجاورة ، فمنهم من يقول انه يستطيع السباحة في النهر في الظلام الدامس وفى شهور الشتاء الباردة ، وانه وحده استطاع دخول المقابر ليلا عندما أبلغ العمدة بوفاة أحد أبناء القرية والذي يعيش في طنطا ولما كان الانتظار لدفن الرجل صباحا يثير الكثير من المشاكل خصوصا بعد أن علم الناس انه قتل بعد أن سطا عليه قطاع الطرق ، وحده سلامة هو الذي قام بفتح المقبرة وتنظيفها دون مساعدة من أحد وتولى دفن الرجل . كانت شجاعته

مضرب الأمثال ، وحكايته يحكيها الصغار مع حكايات أبو زيد الهلالي وعنترة ابن شداد ، فإذا سمع الناس وقع أقدام في ليلة مظلمة فاغلب الظن أنها أقدام سلامة المصري الذي لم يكن يهاب شيئا ولا يحسب حساب شيء ، كان جسورا مقداما . ظهر ذلك جليا عندما علم أن قطيعا من الذئاب الشرسة قد استوطن أحد الأجران غير البعيدة عن ماكينة الطحين وانهم قد قتلوا حمارا لأحد الفلاحين ، وأثاروا الرعب في كل من يقترب من ماكينة الطحين ، بل وقيل أيضا أن الذئاب نبشت قبر سعدون المرابي الذي كان قد دفن حديثا ، وحده سلامة حمل بندقية أحد الخفراء وقتل اثنين من الذئاب التي فرت بعيدا وأعاد رفات المرابي إلى قبره الذي نبش .

لم تكن شجاعته جسارة قلب وإقداما فقط ، بل إنها كللت بقوة غير طبيعية بالنسبة إلى رجل في حجم سلامة من قصر في القامة ونحافة في الجسم فقد كان يتحدى أقوى الرجال الذين يجتمعون ليلا في دكان حسونة بياع القصب ، كان بضربة واحدة يحطم حزمة كبيرة من تلك العيدان الصلبة لا يفلح في تحطيمها أقوى الرجال . كما أنه كان يقدر على البقاء تحت الماء دون تنفس أثناء لهو الشباب في المصلية الواقعة على النهر شمال القرية لفترات غير عادية . بل أن الجميع كانوا يبحثون دائما عن سلامة عند حدوث حريق لأنه وحده الذي يقتحم الحريق ويدخل إلى قلب النار ليخرج طفلا صغيرا محاصرا ، أو يحمل متاعا نفيسا خاف أصحابه احتراقه .

لكل تلك الصفات البطولية لم يصدق الناس أول الأمر ما حدث فمن غير المعقول أن يكون سلامة هكذا ، غير أن الشيخ مسعود أقسم باغلظ الأيمان وهو يمسح جبهته بمنديل محلاوى مهترئ انه حمله وهو يرتعد وانه بنفسه قام بتنظيفه من الأوساخ التي علقت به تحت حنفية الماء في الجامع .

وأصل الحكاية كما يرويها الشيخ مسعود وسئل عن تفاصيلها عشرات المرات بعد ذلك .. أن سلامة قام كعادته قبل الفجر بساعة ، واتجه صوب الفانوس الوحيد في المسجد وهو يسبح الله بصوته المشروخ من اثر المعسل الذي كان يدخنه بشراهة ، أشعل اللمبة الصدئة بداخله فقتل شعاع الضوء الباهت بحر الظلمة الموحش . تنحنح الرجل ثم اتجه إلى إحدى دورات المياه . جلس في وضع قضاء الحاجة ثم أشعل سيجارة كان قد لفها بعناية مساء أمسه . أخذ نفسا عميقا من السيجارة الأولى له في غبشة ذلك الفجر ، فكر في أن خزان الماء الخاص بالوضوء يجب أن يملأ قبل أن يأتي المصلون لصلاة الفجر ، لا يدرى لماذا أحس بالانقباض بعض الشيء هذه الليلة أيكون ذلك بسبب تلك الأمطار الغزيرة التي لم ينقطع سيلها إلا منذ لحظات ، أم بسبب البرودة الشديدة التي لم تفلح معها كمية الخشب التي أشعلها في " منقد " الفخار داخل غرفته الصغيرة .

تنهد بصوت عال ليقتل ذلك الإحساس الذي سيطر عليه فقد كانت حبات المطر التي علقت بأشجار الصفصاف جانب المسجد تصدر صوتا غريبا عند سقوطها على الأرض . كان الجامع قريبا من المقابر لا يفصل بينها وبين المسجد سوى ترعة صغيرة ، ولما كانت من عادة سلامة في مثل تلك الساعة من فجر كل يوم أن يترك باب دورة المياه مفتوحا طلبا لبعض الهواء النقي والتماسا لشعاع الضوء الخافت والمنبعث من الفانوس المعلق في صحن المسجد ، كان الدخان يخرج من طاقتي أنفه كثيفا لامتزاجه بالبخار الخارج مع زفيره ، كانت البرودة قد وصلت ذروتها لدرجة انه لم يتحمل أن تمس يده الماء الموضوع في الإبريق على يساره . غير أن سلامة الذي كان يتجه ببصره إلى حيث شعاع الضوء داخل المسجد وقعت عيناه فجأة على حركة غير عادية بصندوق نقل الموتى أو النعش كما يسميه الناس هنا . كان النعش عبارة عن صندوق خشبي بأرجل طويلة ومطلي باللون

الأخضر ، يثير في من يراه الخوف والرهبة ، فلطالما سجى بداخله رجال وأطفال ونساء ، ولطالما حملوا فيه المقتول والمحروق والغريق الذي لفظه النهر أمام قريتنا ، استعاذ سلامة بالله من الشيطان الرجيم ومن وساوسه ، مسح عينيه بطرف قميصه . نعم .. إن ما يراه حقيقة وليس خيالا أو هلوسات ، صحيح انه قد دخن بسهرة الأمس كمية من الحشيش لا بأس بها ، ولكنه كان على يقين انه واع ومدرك لما يراه . رأى غطاء النعش يرتفع ببطيء شديد ، ثم يلوح له منه رأس إنسان أو بالأحرى عينان تلمعان على إثر وقوع شعاع الفانوس الباهت والمهتز بفعل الريح الشديدة عليهما ، لتكون ظلا متحركا على الرأس الخارج من تحت غطاء النعش . ثم ما يلبث أن ينغلق النعش ، وتعود الرأس إلى الداخل تاركة سلامة في حالة من الرعب لم تفلح معها كل استعاذاته من الشيطان الرجيم ، ولا السيجارة الثانية التي أشعلها بيد مرتعشة . لم يستطع سلامة بعد ذلك أن يقوم من مكانه أو حتى أن يوارى عورته ولم يستطع أن يصرخ ، أغلب الظن أنه حاول ولكنه عجز ، سمره الرعب في مكانه كجثة هامدة ، ومع استمرار غطاء النعش في الارتفاع لتخرج منه بحذر تلك الرأس ، ولتبدو تلك العينان اللتان تلمعان ، ظل سلامة متيبسا في مكانه .

تضايق الشيخ مسعود عندما لم يسمع صوت سلامة يرفع أذان الفجر كعادته كل يوم ، كما تضايق الأهالي الذين اعتقدوا أن وقت الفجر لم يحن بعد ، هب الشيخ مسعود إلى المسجد ليوقظ سلامة ويشرب معه كوبا من الشاي كعادتهما قبل صلاة الفجر ، لكن ما رآه أول ما دخل المسجد ولم يره أحد من الناس أذهله ، إذ رأى سلامة داخل دورة المياه يرتعد مكشوف العورة لا يقوى على النهوض وغير قادر حتى على التحدث .

ويكمل مسعود أن سلامة هو الذي أصر على الرحيل قبل أن يطلع ضوء النهار ليخرج من قريتنا في ليلة باردة كما دخلها في ليلة باردة .

كان الشيخ مسعود ينهى القصة دائما بالإجابة عن ذلك السؤال عن النعش وما الذي كان يخرج منه برأس إنسان وعيون تلمع . فينفجر الشيخ بالضحك حتى يستلقي على قفاه فيخرج عن وقاره قليلا . وإذا به يقول وقد دمعت عيناه إنه ذلك " الجزمجى " الغريب الذي يجوب القرى يصلح الأحذية البالية ويدهن أحذية الافندية . فلما جن عليه الليل لم يجد مكانا يأوي إليه في تلك الليلة الباردة انسب وآمن من ذلك النعش العملاق . فقفز إليه ونام فيه كخير ما يكون الدفء حتى استيقظ على صوت حركة داخل دورة المياه فرفع غطاء الكفن ليرى ما يدور من حوله فإذا به يرى وهجا صغيرا يشتعل ثم سرعان ما يخبو فخاف واغلق عليه النعش وهو يرتعد ظنا أن عفريتا يجلس داخل دورة المياه وبالطبع لم يكن ذلك الوهج سوى الضوء المنبعث من سيجارة سلامة المصري .


حذاء
السيد
المنسي

لم يكن السيد المنسي أو كما يطلق عليه أصحابه وجيرانه منسي يتخيل في يوم من الأيام أن تكون قدماه هي سبب تعاسته وشقائه واللتان لم يجد لهما حلا وعانى منهما كثيرا . بل الأعجب من ذلك أن قدمي منسي أصبحتا الشغل الشاغل لأكثر من خمسمائة فرد هم أفراد كتيبة المشاة المحاصرة في ثغرة الدوفرسوار أثناء حرب أكتوبر . منسي الذي اقترب من الخمسين الآن ما يزال يتذكر تلك الأيام ، ثم تلمع الدموع في عينيه الصافيتين صفاء مجرى النيل الذي يروى منه الفدان الوحيد الذي يملكه والذي لا يكاد يفارقه ليلا أو نهارا ورغم أن منسي قد تبدل حاله منذ تلك الأيام المجيدة إلا أن ارتباطه بالأرض هو الشيء الوحيد الذي ظل ثابتا في أعماقه بل نما وترعرع مع مرور الأيام .

بعد أن يسبح منسي في النيل بعض الوقت ، ثم يصلى العصر في المصلية القريبة من أرضه ، يحلو له أن يجلس وحوله مجموعة من الفلاحين الذين انتهوا لتوهم في حقولهم القريبة من حقله أن يعود إلى الوراء لما يناهز الثلاثين عاما .

يومها كان شابا في بداية العشرينات لا يعلم من أمور دنياه سوى الصلاة في الجامع الكبير وزراعة الفدان الوحيد الذي تركه له أبوه . كان منسي هو الابن الوحيد لأمه التي فقدت بصرها حزنا على زوجها الذي قتله أولاد الليل عندما كان ذاهبا لري أرضه فجرا فظنوه أحد تجار المواشي وبالطبع لم يعثروا معه على شيء فالرجل لم يكن يملك سوى أرضه وابنه الطيب السيد أو كما يسميه الناس منسي .

كانت الهزيمة جاثمة على صدر الناس ومع ذلك كانت آثارها تصل إلى منسي مشوشة وباهتة فلم يكن يشغل نفسه بهذه الأمور أو بالأحرى لم يكن يدرى عما يدور من حوله فمنسي لم يكن ممن يجلسون أمام طه أفندي ناظر المدرسة الابتدائية ليقرا لهم الجريدة الوحيدة التي تصل إلى قريتهم متأخرة يوما أو يومين عن موعدها . ولم يكن يفقه

تلك الكلمات التي يتحدث بها طلبة بلدهم أثناء إجازة الصيف حين يعودون من المنصورة حيث الجامعة والمدارس الكبيرة. حاول منسي أن ينصت إلى حديث احمد بن عم عبد العاطى شيخ البلد ذات مرة وكان يتحدث عن إسرائيل وحرب الاستنزاف وواحد اسمه نيكسون كانت الكلمات تصل إلى مسامعه فلا يملك إلا أن يفتح فاه اندهاشا واستغرابا ثم ما يلبث أن ينهمك في فتحة " حوال "صغير أو تسوية الأرض لينساب الماء في الجدول الصغير برفق وسلاسة.

حتى ذلك اليوم الحزين الذي وجد فيه القرية كلها تخرج عن بكرة أبيها لاستقبال جثة أحد أبنائها الذي استشهد في أحد معارك الاستنزاف كان ذلك في أحد أيام صيف عام اثنين وسبعين كان يوما حارا قائظا. سأل منسي الناس عما حدث فأخبروه أن صديقه الوحيد منصور الرفاعى قتله الإسرائيليون.

جرى الدم حارا في عروقه، بكى بصوت عال أمام قبر رفيق عمره وجاره في الأرض، الذي كثيرا ما سهرا سويا أثناء مواسم الحصاد وأيام دورة الري ولطالما رقصا سويا في الأفراح وذهبا معا لصيد اليمام من كفور العرب.

كان صوت نحيبه طاغيا على صوت الشيخ إمام مقرئ القرية ثم ما لبث أن اتجه إلى أحمد عبدالعاطى وطلب التحدث إليه في أمر هام. اتجه سويا صوب الحقول كان أذان العشاء يأتي إليهم من القرية خافتا ضعيفا، سأله منسي عن كيفية الانتقام لصديق عمره. أفهمه أحمد أن الحكاية ليست حكاية منصور الرفاعى لان كل ولاد مصر إخوانك وأرض مصر التي احتلها اليهود مثلها مثل فدانك الذي تخاف عليه وتحرص عليه كل الحرص.

أضاف أحمد لو لم نقف في وجههم ستجدهم هنا أمام أرضك في يوم من الأيام. كانت الدموع ما تزال تنساب من عيني منسي الذي فأجا احمد عبدالعاطى بسؤاله " أنا عاوز أحارب بتوع إسرائيل دول "،

حاول أحمد أن يخبره انه وحيد أمه وأنها في حاجة إليه ولكنه أصر على الذهاب إلى الحرب.

وبالفعل لم تمر علة أيام إلا وكان منسي قد تطوع في القوات المسلحة. انبهر ضباط مركز التدريب من ضخامة منسي الواضحة وغير العادية فقد كان ماردا مفتول العضلات أكسبته شمس قريتهم بشرة برونزية مائلة إلى السمرة . كان الإصرار باديا على وجهه حتى أنه عندما دخل المعسكر للمرة الأولى كان سؤاله إلى البشجاويش : " هم فين بتوع إسرائيل يا عم الحاج ؟ "

لم يصدق البشجاويش متولي عينيه أنه ما يزال في هذا العالم بشر بهذا النقاء والطيبة إلى الآن .فأحبه وقربه منه لما وجد فيه من بأس وشجاعة في التدريب وقدرة فريدة على حفظ الأوامر والالتزام بها. إلى هنا وأمور منسي طبيعية حتى ظهرت المشكلة والتي هي لب الحكاية التي يحكيها منسي منذ سنوات والى الآن لم يمل أحد من سماعها.

ولما كان منسي بهذا الطول الفارع فإنهم وجدوا له بصعوبة بالغة زيا عسكريا يناسب قياسه النادر هذا ، ولكن الذي أعجزهم وأرهقهم هو كيفية إيجاد حذاء يناسب قدمي منسي شديدتي الضخامة.

في البداية اعتقد الشاويش متولي أنه سيعثر داخل مستودع المهمات على حذاء يناسب منسي فكلف اكثر من أربعة جنود بإحضار كل الأحذية الكبيرة المتوفرة لديهم ولكن هيهات فلقد كانت قدما منسي بالطول الذي لم يكن يتخيله عقل حتى منسي نفسه لم يكن يتخيل انهما كبيرتان إلى هذا الحد صحيح انه لم يلبس حذاء من قبل ، فدائما كان عاري القدمين أو يرتدى ذلك المركوب الذي يصنعه له الأسطى حمودة الجزمجى الذي يجلس بجوار الجامع الكبير.

رفع الشاويش متولي أمر حذاء منسي إلى الرائد خالد الـذي ثـار في بداية الأمر واعتقد أن هذا الأمر التافه لم يكن لـيرفع إليـه وان متـولي كان عليه إيجاد حذاء من داخل المستودع لهذا الجندي الريفي . غير انــه انبهر عندما احضر متولي منسي إلى حجرته ليراه بنفسه حتى يجد حـلاً لهذا المأزق الذي لم يكن يخطر على بال أحد . فكر الرائد خالد في الأمر ثم رفعه إلى قائد الكتيبة الذي حول الموضوع بـدوره إلى مديـر إدارة الإمداد والتموين الذي اصدر أمرا نادر الحدوث بصرف ما يسمى بدل حذاء للجندي متطوع السيد إبراهيم المنسـي ليكـون بذلـك هـو أول جندي في مصر يحصل على هذا البدل الفريد منذ أنشأ الوالي محمــد على جيش مصر الحديث تحت قيادة سليمان باشا الفرنساوي .

اتجه منسي مباشرة ومعه خمسة جنيهات كاملة إلى قريتــه وبـالتحديد إلى حمودة الجزمجى ليصنع له هذه المرة حذاء" ميريا " ينـاسـب مقاسـه . كان الحذاء الجديد هو الشغل الشاغل لمعظم أفراد الكتيبة فما أن عــاد منسي وهو ينتعله حتى هلل الجنود له واخذوا يلقون النكـات علـى منسي وحذائه الضخم الذي كان اقرب ما يكون إلى القارب الصغـير كما أسماه الرائد خالد .

أما منسي فكان يبتســم لهـم وعينـاه اللتـان تشـعان طيبـة وصفـاء تحتضنان الجميع فقد كان يعلم في قرارة نفسه أنها أيـام ويـزج بـهؤلاء الشباب إلى أتون المعركة ليحاربوا اليهود الكفرة وأنـه مـن بـين هــذه الوجوه النضرة من سيلقي مصير صديق عمره منصور الرفاعى .

وعلى الرغم من اتساع الحذاء وضخامته فانه بالكاد كان يسع قدمي منسي مما دعاه إلى الاستئذان من الرائد خالد أن يؤدى التدريبات بدون الحذاء وينتعله فقط عندما يكون هناك تفتيش أو في أثناء نزوله إجازة . وكان من المألوف في الأيام التالية أن ترى الجنود وهو يؤدون تدريباتهم العسكرية وحذاء منسي العملاق قـابع في أخـر الطـابور وحيـدا دون صاحبه الذي انهمك في التدريبـات بكـل الجـد والحمـاس . وللمـرة

الأولى في القوات المسلحة سمح لأحد الجنود أن ينزل إلى ميدان التدريب حافي القدمين ، ومع ذلك فقد كانت قدما منسي العاريتان أصلب بكثير من عشرات الأحذية التي ينتعلها الجنود الآخرين .

كان منسي ما يزال يحكى وقد التف من حوله هذا النفر غير القليل من الفلاحين ينصتون إليه باهتمام عندما اخبرهم كيف كانت فرحة الجنود عارمة عندما صدرت لهم الأوامر بالذهاب إلى خط المواجهة الأول ليكون منسي مع أول الأفواج العابرة إلى الضفة الشرقية من القناة ولتطأ قدماه الغليظتان خط بارليف ولتحطما غرور الجندي الإسرائيلي ، أبلى منسي بلاء شهد له أفراد الكتيبة فقد كان يقتحم الموانع كاسد جسور وهو يصرخ الله اكبر فيلهب حماس زملائه الذين اجتاحوا ذلك الساتر الترابي العملاق .

ولما كان النصر يوم العبور حليف منسي وزملائه فقد كان الحصار في الثغرة أيضا من نصيبهم . كانت أياما عصيبة انقطعوا فيها عن الدنيا ، كان الزاد قليلا والعتاد قد بدأ في النفاد ،أما حذاء منسي فقد تمزق تماما ومع تمزقه كانت آثار الجروح والقروح في قدمي منسي قد بدأت في الظهور ، في أول الآمر لم يعرها انتباها ثم ما لبثت أن اشتد ألمهما فكان يتحمله بعزيمة فولاذية ولكن مع امتلائهما بالصديد لم يعد قادرا على السير ، اقترح عليه طبيب الكتيبة أن يلفهما بخروق ولكنه ما لبث أن أخبره انه لابد أن يلبس حذاء حتى يقيهما من الملوثات ويقيهما أيضا من حرارة رمل الصحراء التي كانت وكأن أحدهم أوقد تحتها نار ا .

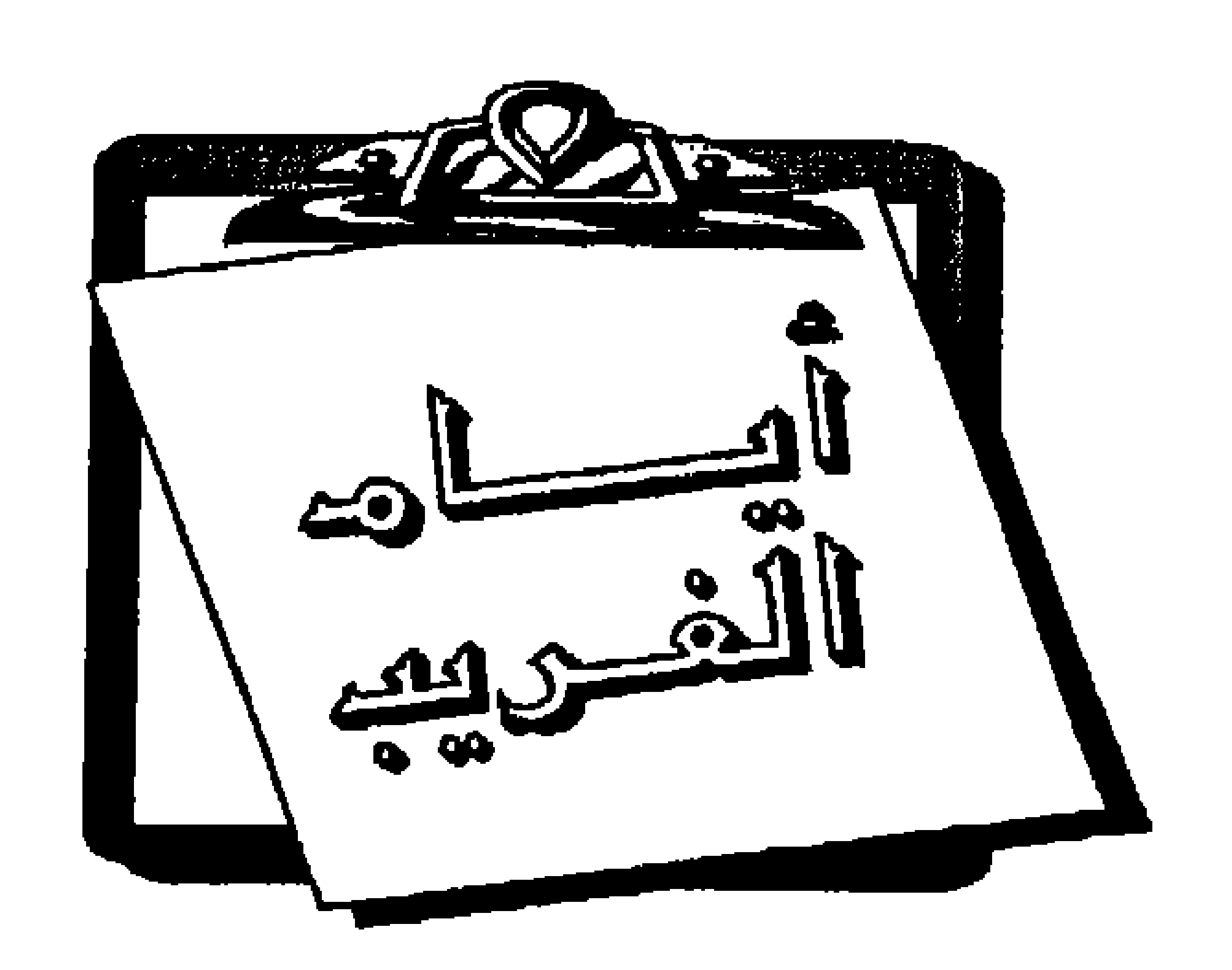
كانت الكتيبة كلها تفكر في حل لمشكلة منسي التي أقعدته تماما عن الحركة ، فكانوا يتألموا لمنظره وهو جالس أمام الخندق يبكى كيف أن زملاءه يقومون بأعمالهم من حراسة الموقع وإطلاق النار والتسلل خلف خطوط العدو وهو جالس هكذا يتناول الطعام في مواعيده دون أن يفعل شيئا .

ولما كان منسي شديد التدين فقد كان يقضي جل وقته يقرأ ما حفظه من القران في كتاب الشيخ بدوي ، و يسمع جديا كلام زميلهم الشيخ محمود الذي كان يصلى بهم ويخطب الجمعة فيهم ، ولم ينس منسي عندما سأل أحد الجنود الشيخ انهم أحيانا يعثرون على بعض أغراض الشهداء مثل الساعات والخواتم الذهبية أو حافظات النقود فهل من حقهم أن يأخذوها ، فأفتاهم الشيخ بأنه يجب أن تترك كما هي أو تسلم إلى القيادة لترسل بدورها إلى ورثة الشهيد إذا تم التعرف عليه .

حاول الرائد خالد أكثر من مرة أن يتصل بالقيادة في الإسماعيلية لتوفير حذا ء ذي مقاس خاص لأحد جنوده الذي أصبح عاجزا عن الحركة تماما ولكن من يسمع أو يجيب إلى هذا الطلب العجيب في مثل هذا الوقت العصيب .

وظلت تلك المشكلة العويصة قائمة ، حتى صباح ذلك اليوم الذي كان فيه منسي يجلس كعادته أمام الخندق وقدميه قد وصلتا إلى حالة صعبة جدا فسمع صياح زميله سعد ينادي بأعلى صوته : " يا منسي يا منسي انحلت يا منسي " ثم أشار إليه أن يأتي .

تحامل على نفسه واتجه إلى حيث زميله مع عدد كبير من أفراد الكتيبة فهالهم ما شاهدوه ، كانت هناك ثلاث جثث لجنود مصريين خلف ربوة عالية اغلب الظن انهم أصيبوا برصاص القناصة الإسرائيليين ولكن الغريب أن أحدهم كان عملاقا في مثل طول منسي وينتعل حذاء يصلح تماما لمنسي . طلب الجميع من منسي أن يخلع الحذاء من قدمي الشهيد ليرتاح من عنائه وعذابه . ولكن منسي الذي كانت الدماء تتسرب من قطع القماش التي لف بها قدميه وقف أمام جثة الشهيد ثم توجه بسؤال إلى الشيخ محمود الذي كان يتمتم بآيات من القران : " حرام اخذ الحذاء ولا حلال يا مولانا ؟ "


أيام
الغريب

لا أعلم لماذا قفز فجأة إلى بؤرة الشعور ولماذا عاد إلى مخيلتي بهذه القوة رغم أنى لم أره إلا أياما معدودة وكان ذلك منذ ما يزيد عن خمسة عشر عاما . وبالرغم من تلك السنوات البعيدة فإن صدى كلماته الهادئة ما يزل يرن في أذني ، صحيح أن ملامح وجهه قد تلاشت بعض الشيء من ذاكرتى و ربما أكون قد رسمت له صورة أخرى تجمع ما بين نقاء روحه وبهاء محياه وطلعته . إلا أن الكل ما يزال يتذكر كيف وجدناه فجأة في وسط القرية وبالتحديد أمام الجامع الكبير وخلفه نفر غير قليل جاءوا ليروا ذلك الغريب الذي يقود عربة صغيرة يجرها حمار أبيض اللون ناصعه .

كان الرجل مائلا إلى الامتلاء قليلا ،وعلى وجهه سيماء الصالحين ، ترتاح العيون في النظر إليه ، كان يلقى السلام على كل من تقع عليه عيناه ، وما أن توقفت عربته في الساحة الكبيرة أمام الجامع و التي نصلى فيها صلاة العيد ، وهم الرجل بالكلام حتى صاح خليل الاسيوطى تاجر المواشي وأحد النفر القلائل الذين اعتادوا الخروج من القرية إلى القرى المجاورة أو إلى المنصورة مدينتا الكبيرة . لم نفهم علام يهلل عم خليل ولكم الأمر بدا يجلو شيئا فشيئا عندما سمعناه يقول :

" يا ألف مرحب بعمنا وتاج رأسنا "

ثم خطف يد الرجل وأخذ يقبلها وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، كنا في ذهول إلى أن أعلن خليل أن بلدنا شرفت بزيارة أحد أولياء الله الصالحين الشريف ابن الأشراف سيدنا محمود الطيب ، كبر الرجال الذين تحلقوا حول الرجل وعربته وحماره الأبيض وأطلقت النساء الزغاريد ، عندما أطلق خليل قنبلته الأخيرة وهو أن الشيخ محمود علاوة على انه من حملة القران فهو " من أحفاد سيدنا الحسين يا أهل البلد "

لم يبرح ذلك اليوم ذاكرتي ، كان يوما مهيبا عظيما ، لا أدرى ماذا حدث بعد ذلك ولكن كل ما اذكره أن الرجل اختار بيت رجل متواضع للإقامة فيه ، ساعتها تحول بيت السعيد البكري ذلك الصياد الفقير والذي كان يعيش في بيت اقرب ما يكون إلى الكوخ مقام على شط النيل مباشرة ، والذي كان رزقه موقوفا على ما يجود به النهر عليه فجر كل يوم عندما يرمى السعيد شبكته القديمة المهترئة .

توافدت الحشود للسلام على الشيخ محمود ونيل بركاته ، كان أهل بلدنا ناسا شديدي الطيبة لا يعلمون من أمور دنياهم سوى القليل والقليل جدا ، فبعضهم ولد وعاش ومات في القرية دون أن يخرج منها ولو مرة واحدة .

ولما كانت قريتنا مثلها مثل كثير من قرى مصر الرابضة في حضن النيل منذ آلاف السنين ، لا يعرف أهلها إلا فرادات الأشياء ، فالقرية كلها لم تكن تملك إلا راديو واحد في دكان الحاج إسماعيل الخياط ، يتجمعون حوله عصر كل يوم ليستمعوا إلى عبد الوهاب وأم كلثوم وخطب جمال عبد الناصر ، ولم يكن بها سوى حلاق واحد يحلق للناس في السوق وعلى المصاطب ويتقاضى اجره مع موعد جنى المحصول من قمح وذرة وأرز ، ولم نكن نعرف سوى جزمجى واحد هو سعدون الذي لم يكن يعي من أمور صنعته سوى صناعة القباقيب والنعال الجلدية الغليظة ، وحتى دكان البقالة الصغير لم يكن أحسن حالا من سابقيه فلم يكن يوجد فيه غير القليل من السكر والشاي والصابون الرديء واهم ما كان يبيعه هو زجاجات الجاز التي يوقد بها الناس تلك اللمبات الصغيرة التي كانت تبدد بعضا من الظلام الذي يخيم على قريتنا من بعد صلاة المغرب .

وناسنا لا يعرفون الحلول الوسط ولا يدركون أن هناك ألوانا غير الأبيض والأسود فإما أن يحبوا الشخص إلى حد العبادة أو أن يكرهوه إلى حد الرجم والطرد من القرية مثلما حدث مع على البحراوى

الذي ضبطه بعض الرجل مع زوجة عليش الغفير في أحد حقول الذرة فطردوهما شر طرده وتبرأ منهما أهلهما ولم يرها أحد بعد ذلك حتى علمنا انه تركها وذهب عند أخواله في الصعيد أما زوجة الغفير فقد شوهدت في شارع صيام بالمنصورة وقد التحقت ببيت من بيوت البغاء والتي كانت منتشرة على استحياء في ذلك الوقت بعد أن أغلقت الحكومة تلك البيوت التي كان مصرحا بها في عهد الملك المطرود،

وهكذا استقبلت بلدنا الشيخ محمود وكأنما وجدت فيه ضالتها المنشودة ، كان الناس يقفون بالساعات أمام بيت السعيد البكري الصياد حتى يتمكنوا من رؤية الشيخ محمود ، الذي كان يجلس في صدر القاعة التي فرشت بالبسط والتي جلبت خصيصا من منزل العمدة وعلق في سقفها كلوب الجاز الكبير ، الذي جعل المكان يبدوا وكأنه فرح مهيب ، كان الشيخ يتكلم بالحكمة ، بصوت خفيض ، لا يرفع نظره إلى امرأة ، وإذا تكلم أوجز ، وإذا انفعل ابتسم واستغفر الله .

احبه الناس فنقلوا خبر وجوده في قريتنا إلى القرى المجاورة فتوافد الخلق من جميع الأنحاء أملا في رؤيته ، وبين يوم وليلة تحولت قريتنا إلى قبلة للمحتاجين والمرضى وذوى الحاجات و كان الرجل يعالجهم بالقران ، ولم يكن يقبل مالا نظير ما يقدمه من نصيحة ومن علاج . كان يجلى القلوب العليلة ، ويشفى العقول المشوشة بحلو كلامه وطيب حديثه ، فامتلأت الساحة الموجودة أمام بيت السعيد البكري بمختلف أنواع الهدايا التي كان يتركها الناس للشيخ من خراف وبط وحمام وحبوب وغلال وسكر وشاي وخير كثير وكل ما جادت به النفوس وسمحت به الظروف .

حتى كان صباح ذلك اليوم الذي خرج فيه الشيخ من غرفته للمرة الأولى منذ دخلها ، فاجتمع أهل البلد وحشد غير قليل من

القرى الأخرى ، فنادى علـى الفقـراء والمحتـاجين وكثـير مـن الباعـة السريحة الذين التفوا حول بيت السعيد البكري ، من باعة الفطائر ، وأصحاب المراجيح وباعة اللب والسوداني وكثـير ممـن أتـوا لرؤيـة الشيخ .

وزع الشيخ عليهم من ذلك الخير المكدس أمام بيت الصيـاد . ثـم أعطى مالكه ما يحتاجه وزيادة ثم اتجه إلى حماره ووضع بنفسـه السـرج عليه وجهز نفسه للرحيل. كان الرجل قـد بقـى في قريتنـا سـتة أيـام كاملــة .

لم يصدق الناس انـهم سـيفيقون مـن ذلـك الحلـم الجميـل ، أمـن المعقول أن يغادرنا الرجل الصالح بعد أن جاء ومعه البركة إلى القرية . فقد استطاع أن يصالح اكبر عائلتين كانا في عراك منذ سـنوات طويلـة وحل كثير من المشاكل والمظالم وأعاد الكثير من الحقوق إلى أهلها وأمر بهدم غرزة برهومة الأعرج خارج القرية . حاولوا إثنـاءه عـن عزمـه ، قبلوا يده وبكوا تحت قدميه ولكنه كان يقول بهدوئه المعهود :

" مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها " .

شيعته القرية بالدموع ووعدهـم أن يعود عندما يحس انهم في حاجة إليه قالوا سـننتظرك وسـتنفذ أوامـرك الـتي أمـرت بـها . لـن تعـرف الضغينة والكره مكانها إلى قلوبنا بعد اليوم .

كان يبتسم وعيناه تلمعان بالدموع وغاب الرجل وغابت عربته عن الأنظار كما تغيب الشمس وقت الغروب . انتظروه كثيرا وما زالــوا ينتظرون .


السنترال

انتظرت قريتنا طويلا أن تتمتع بشيء من ذلك التطـور الهـائل في ثورة الاتصالات التي نمت وازدهرت ، كانت فرحتنا عارمة ورئيس مجلس المدينة يقص الشـريط إيذانـا بافتتـاح السـنترال الذي انتزعته جهود المخلصين من أبناء بلدتنـا مـن أنيـاب المحافظـة ودهاليزها المليئة بالروتين والبيروقراطية .

كان الهاتف الذي حل في منازلنا ضيفا لم نعتد على صوته بعد ، ولا على فوائده أو أضراره كائنا جديدا لم نألف وجوده بيننـا . غـير أننـا سرعان ما تأقلمنا معه وأحببناه ، فلم يعد الواحد منـا يقطـع المشـوار الطويل من أدنى القرية إلى أقصاها من اجل أن يخـبر زميلـه انـه لـن يذهب معه إلى الري هـذه الليلـة ، أو أن تذهـب إحـدى النسـوة إلى ماكينة الطحين وهى تحمل على رأسها جوالا من القمح ثم تفاجأ بـان ماكينة الطحين مغلقة هذا اليوم للصيانة.

بالطبع لم يخل الأمر من مآرب أخرى ، فبدلا من أن يقضى مسعود العجلاتى الساعات الطوال ليشاهد خـروج رمضـان أبـو سـريع زوج " حلاوتهم " إلى عمله في مصنع البلاستيك ، تكفيـه الآن مكالمـة واحدة ليعرف أنها لن تستقبل غيره هذه الليلة .

وبجانب هذا الهاتف ، سهر المحبون من طلبة الثانوي ، كما أنـه حـل عقدة محمود الناف الذي ظل لسنوات طويلة متيمـا بحـب جارتـه وداد دون أن يبوح لها بمكنون قلبه ، وأنقذ قريتنـا مـن حريـق مدمـر عندمـا انفجرت اسـطوانة غـاز في مطعـم الحـاج عـوض البـاجورى ، وفـى التليفون أيضا اخرج عبد الحميد الدمياطي تلك الشحنة مـن الكبـت والغضب القابعة في أعماقه منذ دخل ورشة الحدادة التي يملكها خليـل سنقر وأذاقه فيها من صنوف الإهانة الكثير والكثير . غير أن التليفون قضى على كثير من زيارات الود والمجاملـة ، فاسـتعاض النـاس عنـها بالحديث في تلك الماكينة التي لم يعهدوها إلا قابعة في المحلات المنتشـرة في شوارع مدينتهم .

حتى كان ذلك اليوم الذي وفد فيه إلى البلدة موظف جديد في البنك الزراعي. كان شابا لم يتخط العقد الثالث من عمره بعد، طويل القامة ممشوق القد. اندهش الناس أول الأمر عندما شاهدوه بعد صلاة العصر وقد ارتدى بدلة رياضية واخذ يعدو على الطريق الزراعي الممتد إلى خارج قريتنا.

كانت النساء ينظرن إليه بعيون تملؤها الرغبة في هذا الغريب الجميل الطلعة. فدارت أحاديثهن في ماكينة الطحين أو عند نادية الخياطة عن هذا الشاب الوسيم الذي قلب حياتهم رأسا على عقب دون أن يدرى ماذا فعل بهن. حتى أن شلبية العايقة كانت تفحش في القول وتزيد من حنق الأخريات عليها وهى تقول:

" نفسي في سى حسام مرة واحدة وبعدين أموت "

وبالطبع لم يكن حسام شكري هذا الموظف الجديد يعلم ما تخبئه له الأيام في هذه القرية الصغيرة والقريبة إلى حد ما من المدينة ، كان قد اعتاد الخروج بعد صلاة المغرب كل يوم بعد أن يكون قد انتهي من رياضة الجرى التي كان يفضلها إلى مقهى بكر العربي وهو يرتدى قميصا ناصع البياض وبنطالا عرفت المكواة طريقها إليه ويفوح منه عطر الياسمين الذي كان يفضله.

كان يجلس مع زملائه في البنك على طاولة بعيدا عن تلك الثلة الدائمة الجلوس في مقهى بكر وهو لا يعلم انه اصبح حديث القرية كلها. الجميع يتمنون معرفة ما الذي قذف بموظف مثل حسام إلى قرية صغيرة والى بنك زراعى لا يحمل من صفات البنوك سوى الاسم فقط.

ثم انتقل حسام شكري من استراحة العملة التي نزل فيها مؤقتا لعدة أيام إلى منزل جديد استأجره له البنك . كان المنزل صغيرا ولكنه جميل وهادئ وخصوصا انه كان يبعد قليلا عن منازل الأهالي،

وبالقرب من السنترال الجديد بدرجة كبيرة. شعر صاحبنا بالوحدة القاتلة فبلدنا تنام مبكرا اللهم إلا مجموعة الطلبة التي تجلس على كوبري الإنجليز القديم حتى ساعات الصباح الأولى. ولكن حسام وجد حلا لهذه المعضلة، إذ دأب على التغيب يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع ليعود صباح السبت من المدينة وقد بدت عليه سيماء الإرهاق والتعب.

بالطبع نسج الناس حول ذهابه المتكرر إلى المدينة القصص والأقاويل، خاصة بعد أن علموا انه لا ينتمي إلى مدينتنا، ولا حتى إلى أي مدينة قريبة منها، خصوصا بعدما أذاع سعد المدبولي زميله في البنك سرا اكمل به على البقية الباقية من عقول الفتيات وألهب به حرارة النساء المتقدة كلما رأينه يسير في أحد دروب القرية وسيما نظيفا ويفوح منه عطر الياسمين.

قال سعد وهو يجهز على البقية المتبقية من كوب الحلبة الحصى الذي صنعه له بكر القهوجي خصيصا من أجل هذه الأخبار:
" شوفوا يا جماعة دا جدع فاسد ومنقول من الصعيد لسوء سلوكه يعني بالختصار بتاع نسوان "

ثم نظر إلى الكوب الخالي أمامه وهو يتحسر " سامحني يارب " هكذا أضيفت إلى حسام مزايا أخرى لم يكن على علم بها بعدما زاد سعد المدبولي دون أن يدرى في شعبية حسام عند نساء وفتيات القرية التي تمنت كل واحدة منهن أن توقعه في حبائلها. لكن ما حيرهن وأطار النوم من عيونهن هو أن هذا الحسام لا يظهر بعد صلاة العشاء مطلقا حتى صباح اليوم التالي فماذا يفعل كل هذه الوقت بمفرده؟ وخصوصا بعد أن اقسم جماعة مقهى بكر العربي أن أنوار منزله لا تنطفئ قبل الثانية صباحا.

بالطبع اصبح حسام موظف البنك الزراعي هو القاسم المشترك لجلسات ليالي الشتاء الباردة حول " مناقد " النيران. حاولت جماعة

بكر العربى استمالة على الدكرورى الفراش الـذي كـان ينظـف لـه مسكنه فلم يفدهم كثيرا . ثم ما لبثوا أن يئسوا مـن حـل لغـز ذلـك الشاب الوسيم الغريب الطباع . وهكذا كـانوا يتحدثـون عنـه بحـذر وريبة ثم يتسمون في وجهه عندما يأتي إلى المقهى ليجالس زملائـه في البنك الزراعي ويلعب معـهم الطاولـة . أمـا النسـاء والفتيـات فلـم يعدمـن وسـيلة للوصـول إليـه والتحـدث معـه السـاعات الطـوال ، وبالتأكيد كان ضيفنا الجديد هـو خـير نـاقل للنـيران الـتي تلتـهب في القلوب المشتعلة حبا ووجدا . فتناقلوا فيما بينهم رقـم هاتفـه لتنـهال عليه المكالمات مـن الصغـيرة والكبـيرة .المتزوجـة والمطلقـة .خريجـة الجامعة والـتي لم تطـأ قدماهـا طريقـا إلى كتـاب أو مدرسـة ، وكـانت المفاجأة انه تحدث مع الجميع وفتح قلبه للجميع حتـى اعتقـدت كـل واحدة منهن انـه لهـا ، وأنـها نـالت منـه ، وأوقعتـه في شـباكها الـتي نسجت . بحـن لـه بأسـرار منـازلهن ومـا حوتـه صدورهـن لسـنوات طويلة .ومع حرارة أحاديثهن خرجت منهن خبايـاهن كمـا تخـرج النـار الخبث .

حكت له ابنة على الدمهنورى كيف أن والدها قام بتزويجها لرجل لا يتمتع من الرجولة بشيء سـوى بشـارب كـث ومنصـب حكومـي مرموق . وأخبرته زوجة الفران أن زوجـها يحبـها أن ترقـص لـه قبـل الدخول إلى الفـراش ، وصارحتـه ابنـة رئيسـه في البنـك الزراعـي والـتي لم تتجـاوز الثامنـة عشـر بعـد أن طيفـه لا يفـارق خيالهـا ليـلا أو نهارا .

وهكذا كان حسام يقضى لياليه في التنقـل في الحديـث مـن امـرأة إلى أخرى ومن فتاة إلى سيلة . معتقـدا بذلـك أن مـا يفعلـه سـيقضى على وحدته ويرحمه من عذابه في تلك القريـة الـتي تنـام بعـد صـلاة العشـاء .

ومع اشتعال ما يتحدثن فيه ووصولهن إلى مناطق لا يصلها إلا زوج وزوجته، حاول أن يدعوهن إلى منزله أو أن يراهن في المدينة القريبة ولكنهن جميعا آبين تحقيق رغبته تلك. وتعللن جميعا أن كل شئ بأوان وأنهن يتمنينه كما يتمناهن واكثر. وبالطبع لم ينقطع سيل المكالمات التي تصله كل ليلة ولم يمل هو من سماع أسرار وخبايا القرية يوما بعد يوم.

أصبح حسام شكري دون أن يسعى ملما بكل تفاصيل وأسرار البلدة، وعن طريق التليفون عرف ما لم يعرفه أحد، اجتمعت لديه كل أسرار البيوت وحكايات غرف النوم السرية، كان كمن جلي بصره فرأى الرجال في المقهى وفى الطرقات عرايا من الزيف الذي يتسربلون به، رآهم مجردين من القوة والبطش، من النفوذ الذي يزعمون، من السطوة التي كانت تلوح له كزبد البحر.

لكن الذي لم يعلمه ولم يحسب له حسابا، أن عيسى موظف السنترال واحد أبناء القرية كان يتسمع إلى مكالمات حسام منذ المحادثة الأولى وحتى محادثة أمس عندما أخبرت زينات المنصورى حسام أن زميله في البنك مخلص سميح على علاقة بنجوى كمال التي سافر زوجها إلى الكويت منذ ثلاث سنوات ولم يعد. بل أضاف عيسى وهو يحاول ابتزاز حسام أن جميع المحادثات قد تم تسجيلها وأنها كفيلة بجعل أهل البلد يفرمونه كما يفرم القصاب اللحم.

ولكن حسام بنفسه بدأ الهجوم إذ كان يدرك جيدا أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم والهجوم المباغت، ففتح دليل التليفون وهاتف أهل البلد جميعا مخبرا إياهم أن عيسى موظف السنترال كان يتصنت على أحاديث نسائهم الملتهبة وانه يمتلك تسجيلات لهم مع حسام موظف البنك الزراعي وكان ينهى المخابرة بقوله فاعل خير. أصبحت القرية ورجالها جميعا لم يخرجوا إلى أعمالهم، لم يفتح أحد دكانا، ولم يذهب موظف إلى عمله، أو عامل إلى مصنعه أو فلاح إلى حقله.

كان كل واحد منهم ينظر إلى زوجته أو ابنته ثم يعض على أنامله، انه بنفسه هو الذي قام بتركيب ذلك الملعون الذي يسمى تليفون .

فكر أحدهم في قتل عيسى وفكر الآخر في قتل حسام وفكر آخرون في تطليق زوجاتهم أو عقاب بناتهم على تلك الفعلة الشنيعة التي لم يعرفوا إلى أي مدى قد استفحلت وانتشر وباؤها . حتى ذهبوا مساء إلى مقهى بكر العربي وجلسوا وكأن على رؤوسهم الطير . اعتقد كل واحد منهم أن ابنته أو زوجته فقط هي التي كانت تحادث حسام وان التسجيلات التي بحوزة عيسى عامل السنترال تخصه فقط . حتى صاح أحدهم وكان سعد المدبولي زميل حسام وأكثرهم حنقا وكرها له :
" يا أهل البلد إنتوا ساكتين ليه كلنا في الهوا سوا "

فحلت كلمات سعد عقد الألسن التي لم تنطق بشيء منذ تلقت مكالمة أمس وصاحوا جميعا في صوت مملوء بالغضب والحنق : " والحل إيه يا أستاذ سعد ؟

وقف سعد والشرر يتطاير من عينيه وقال بصوت عال:

"إن نساءنا جميعا أشرف من الشرف وقطع لسان أي حد يتكلم عليهم كلمة واحدة "

ثم حرض الجميع الذين توافدوا إلى مقهى بكر فامتلأ بهم وامتلأت بهم الساحة خارجه . اتجهوا جميعا صوب السنترال وقد عميت أبصارهم وبصائرهم وما هي إلا لحظات حتى كان السنترال وما يحوى كتلة من النيران تحترق بعد أن أغلقوا الأبواب على عيسى الذي شوهد وهو يستنجد بهم وسمع صوته من الداخل قبل أن يتفحم: " والله ما عندي تسجيلات ولا حاجة أنا كنت باكذب " .

ثم اتجهوا إلى منزل حسام فوجدوه خاليا .

الفهرس

صفحة

صدر للمؤلف

- عفاريت شجرة السرو		مجموعة قصصية ١٩٩٨
- حذاء السيد المنسي		مجموعة قصصية ١٩٩٩

تحت الطبع

- بلاد الزيت		(رواية)
- عمالقة من الدقهلية		(دراسة)

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع فى الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كندة	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزية الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد فى ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعيدى صُح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس ابوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النغم	ليلى الشربينى
الخرابة 2000	محمد الشرقاوى
كوميديا الإنسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
الحاج	محمد عبد السلام العمرى
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
الحبيب الجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخورى

شعر ..

العنوان	المؤلف
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البياتى وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
ناماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمرى
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبرى السيد
دنيـــا تنادينـا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر . النجوم . العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
حواديت لفندى	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادى
راتب الألفة	علوان مهدى الجيلانى
إضاءة فى خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
مشاعر مهجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَتَس	محمد الحسيتى
ليالى العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد

مسرح ..

العنوان	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقى الدجانى
اللعبة الأبدية ـ (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة القرود	محمود عبد الحافظ

دراسات ..

العنوان	المؤلف
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعانى فى بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشى
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي فى السعودية	شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروع	شوقى عبد الحميد
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
هيمنجواى حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
أدب الطفل العربى بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديرى
الرواية العربية : رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية – قومية – دينية – معارف عامة – تراث – أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب – وثائق – النشرة الدولية – دراسات عربية – معلومات – ملفات صحفية موثقة.



عرفتـه فى صالون الجسره الثقافى بمدينة الدوحة كاتبًا عاشقًا لفن القص ، ولم تشغله سنوات الغربة والترحال عن التوحد بالبيئة المصرية العامة والريفية بخاصة .

وعلى الرغم من أن مجموعتـه الأولي عفاريت شجرة السرو تشكل المخاض الجنينى للقص عند أشرف العوضى إلا أن هذه المجموعة تشكل مرحلة الميلاد الفنى له وتعد خطوة فنية متطورة فى مسيرته القصصية ، والكاتب يمتلك ناصية القص عندما يحاول التعبير عن خصوصية البيئة الريفية المصرية على أن هذا لا ينفى المحاولات الجيدة التى عبر من خلالها عن المدينة بكل ما تحمله من تناقضات وتوافقات وعوالم مختلفة .

د . مراد عبد الرحمن مبروك



مركز الحضارة العربية